أحداث ومشاهير عالمية



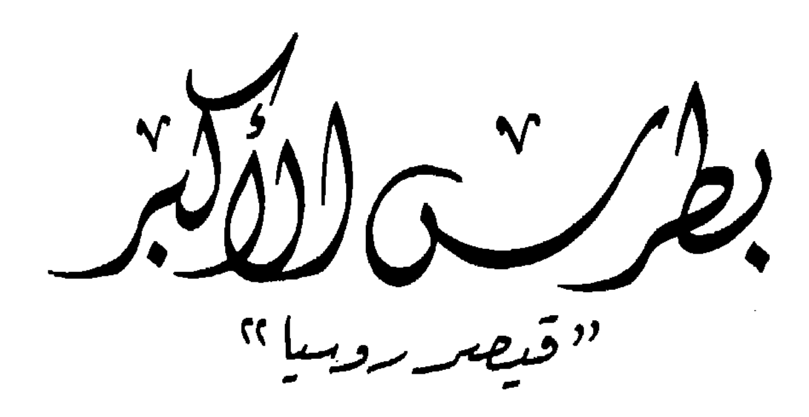
بطرس الأكبر

"قيصر روسيا"

الدكتور يحيى شعيب

دار الفكر اللبناني

أحداث ومشاهير عالمية



"قيصر روسيا"

الدكتور علي شعيب

دار الفكر اللبناني
بيروت

دار
الفكر اللبناني
للطباعة والنشر

كورنيش بشارة الخوري - بيروت - لبنان
هاتف: ٦٣٠٩٠٦ - ٦٣١٠٠٢ - ٦٣٠٧٥٧
ص.ب: ٤٦٩٩ أو ١٤/٥٤٩٠

الطبعة الأولى ١٩٩٢

مقدمة

يجمع بعض المؤرخون أن تطور المجتمع تحدده أعمال القادة الذين أسسوا الأمبراطوريات الكبيرة أو الملوك الذين يسنون القوانين الحكيمة . في الواقع كان بطرس من هذا الطراز من القادة . فقد أجرى إصلاحات كبيرة في حقول الإقتصاد والثقافة والشؤون العسكرية وتنظيم الدولة . وقد هيأ لهذه الإصلاحات كل التطور السابق للمجتمع الروسي إجتماعياً وإقتصادياً . وقد رأى بطرس بثاقب نظره أن تأخر البلاد الإقتصادي والثقافي بالمقارنة مع بلدان أوروبا الأكثر تطوراً يهددها بفقدانها الاستقلال الوطني . فلم تستطع روسيا المتأخرة أن تسير على سياسة خارجية مستقلة تماماً . وساءت مكانتها الدولية في نهاية القرن السابع عشر .

أيقن بطرس أن روسيا بحاجة إلى طرق المواصلات البحرية للوصول إلى المياه الدافئة لكي تتطور بصورة طبيعية . وكان يقول : « روسيا بحاجة إلى البحر » . وكان يشعر أن البحر قريب ولكن الوصول إليه كان متعذراً .

إذن كانت مهمة بطرس مزدوجة للنهوض بدولته ، وتتلخص بضرورة تطويرها من الداخل وتغيير حالتها الخارجية .

ما أنجزه بطرس يشير إلى قدرة رجل غير عادي جمع بين

المتناقضات . فهو يبدو شرساً محباً للذات ، لا يلقي اعتباراً للحياة الإنسانية ، ولا يتورع عن صبغ يديه بأبشع الجرائم . ومع ذلك كان من أعظم حكام عصره .

وقد لام بعض المؤرخين بطرس على فتكه ببعض الأهالي والقساوسة ولا سيما جماعة حرس الإسترلتش لزعمهم أنه كان قد انتفع بهم لو أذلهم أو أدخلهم كالأسرى بين طوائف الفعلة والمشتغلين بأشغال الدولة وإنه بعمله هذا خسرهم . إلا أن هذا اللوم لم يكن في محله لأن أهالي روسيا في تلك الأيام لم تكن متمدنة التمدن الموجب للتساهل في أمور الدولة ولا كان حرس الإسترلتش ممن يعرف احترام النفوس البشرية بل كان على الدوام شر وفساد وعلة ثورات وفتن . ورأى بطرس من نفسه أن لا أمن يسود في بلاده على الدوام إلا بإلقاء الرعب بقلوب الأهالي لينزع من رؤوسهم إثارت الفتن . وبذلك تمكن من إتمام مقاصده بتقدم بلاده وتوسيعها .

تجدر الإشارة أن ما كتب عن بطرس أو عن روسيا في عهده باللغة العربية لا يزيد في معظم الكتب ، التي اطلعنا عليها ، على عشر صفحات . ووجدنا أن كلها تقريباً متطابقة في المعلومات حتى يخال المرء أنها منسوخة عن بعضها . لذلك كانت مهمة البحث عن بطرس الأكبر شاقة . وما كتب عنه نقلاً عن المؤلفات السوفياتية كانت انتقائية تتماشى ووجهة النظر الماركسية . لذلك يأتي هذا البحث ليلقي الضوء بصورة أشمل عن بطرس الأكبر .

الفصـل الأول

ظهور الروسيا كدولة عظمى

كانت الروسيا في القرن السابع عشر أكثر دول القـارة الأوروبية تخلفاً . في حين كانت تنعم بقية القارة بنتائج النهضة الصناعية والفكرية بدت الروسيا حتى ذلك الوقت تتحكم فيها مفاهيم القرون الوسطى ، يسودها الجهل الإجتماعي المشبع بالخرافات ، والتفكك القومي الناتج عن الوصول إلى العرش والسلطان بقوة السلاح ، وانحلال مؤسسات الحكم السياسي لتفشي الـرشوة في مؤسسـات الدولـة ولسيطرة فئـة قليلة من الإقطاعيين على مقدرات البلاد الإقتصادية . وقد وصف أحد المعاصرين لحالة الروسيا في ذلك العصر « إذا تمعن الفرد في طبيعة حياة المسكوفيين وأساليبهم اضطر إلى التسليم بأنه لم يجد شيئاً آخر يفوق ذلك الشعب الروسي همجية . إنهم لا يتعلمون أي فن أو علم أو يأخذون أنفسهم بأي لون من ألوان الدراسة ، وعلى النقيض من ذلك بلغ بهم الجهل أنهم يظنون أن ما من إنسان يستطيع أن يضع تقويماً إلا إذا كان ساحراً يتنبأ بدورة القمر وحركة الكسوف والخسوف إلا إذا كان على اتصال بالشياطين » .

هذه الحالة التي كانت تميز الروسيا عن بقية دول القارة الأوروبيـة في مرحلة عصـر النهضة ، كـانت وليدة الـظروف الموضوعية والعوامل التاريخيـة التي شهدتهـا الروسيـا خلال العصور الوسطى . بذلك لم تكن الروسيا في ذلك الوقت دولة أوروبيـة بالمعنى الصحيـح . كانت عقيـدتها تتبـع المذهب اليوناني (الأرثوذكسية) ولكن حضارتها كانت آسيوية . وحال اعتناق الأرثوذكسية بطبيعة الأمر دون الاتصال الحضـاري مع غـرب أوروبا الكاثوليكي الذي كان بدوره شديد التعصب لمذهبه . لـذلك رأى الـروس في دراسة الـلاتينية خـطراً عظيمـاً على الأرثوذكسية ، كما أن الروسيا كانت أكثـر الدول التي دفعت ضريبة الاحتلال البربري خلال العصور الوسطى وذلك لقربها من المنبع الأساسي لهـذه القبائـل التي كانت تقـطن جهات منغوليا والصين وأكثر الدول احتكاكاً بالشعوب الآسيوية التي كانت خلال هذا التاريخ أكثر الشعوب بداوة وتأخراً . ومما زاد أيضاً في عزلة الروسيا عن منابع الحضارة الكـلاسيكية التي عرفتها أوروبـا منذ القـرن الخامس عشـر الموقـع الجغرافي والحصار الدولي الذي فرض عليها من قبل الأتراك العثمانيين في الجنوب لسيطرتهم على جميع أراضي البحر الأسود . ثم من دولة بولندا القوية من الغرب التي كـانت تحول دون أي امتداد روسي في تلك الجهات . أما دولة السويد فقد كانت تسيطر على شواطيء بحر البلطيق والملاحـة فيه . ولم يكن للروسيا سوى ميناؤها الوحيد أركانجل Archangel الذي كان

مغلقاً أكثر من نصف العام بسبب الجليد .

لقد شارك في تأخر الروسيا ، إلى جانب رجال الدين ، مجموعة من أسرة روريك (Ruric) السويدية الأصل تعاقبوا على عرش الدولة ومارسوا ألوان العف في نفس الوقت . فلا برلمان ولا مدن حرة ولا نقابات حرف حتى ولا نظام معين للطبقات الإجتماعية . أما المرحلة التي أعقبت حكم أسرة روريك فقد امتازت بالفوضى وعدم الاستقرار . فأظهرت الدول المجاورة (بولندا والسويد) طمعها في أراضي الروسيا وهاجمتها من الحدود المشتركة .

ولكن الشعب الروسي نجح في مقاومة الحكم البولندي وهب بأجمعه بدافع الشعور القومي ليطرد البولنديين من موسكو . ولم تستقر الأمور في الروسيا إلا بعد موافقة المجلس الوطني المكون من الأمراء على اعتلاء ميخائيل رومانوف عرش الأمبراطورية في عام ١٦١٣ . حاول هذا الأخير أن يربط بلاده بحركة النهضة الأوروبية ، أثناء القرن الثامن عشر ، وأن تأخذ مكانتها بين الدول العظمى .

خلال هذا القرن ، تغيرت الخريطة السياسية والتوازن الدولي بعمق في شمالي أوروبا وشرقها . وبدأت عظمة دولتين ، هما روسيا وبروسيا ، وضعف دولتين آخرتين . هما السويد وتركيا . وفقدت السويد تلك السيطرة والتفوق التي كانت قد حصلت عليها في أواسط القرن السابع عشر ،

وحافظت عليها بصعوبة خلال خمسين عاماً ، وسقطت تركيا من تلك الوضعية التي كانت تجعل منها دولة تمثل خطراً على أوروبا المسيحية والتي كانت قد وصلت إليها منذ نهاية القرن الخامس عشر ، واحتفظت بها ما يقرب من قرنين كاملين . ونرى في ذلك الوقت كذلك ، اختفاء دولة ثالثة هي بولندا ، التي قام جيرانها الروسيا وبروسيا والنمسا بتقسيمها فيما بينهم .

لم يكن اختيار ميخائيل للعرش نابعاً من كونه يتصل عن طريق النسب بالأسرة السابقة فقط بل لكونه صغيراً لم يتجاوز الخامسة عشرة يفتقر إلى الخبرة في شؤون الحكم ليظل تحت مراقبة النبلاء وسيطرتهم . حكم روما نوف حتى سنة ١٦٤٥ . فتولى بعده العرش ابنه ألكسي الذي استرد من البولنديين أوكرانيا الشرقية ومدينة كييف . ثم حكم من بعده ابنه فيدور Fedor (١٦٧٦ - ١٦٨٢) ولكن الروسيا لم تمارس نفوذها كدولة ذات شأن إلا عندما تولى حكمها بطرس الأخ الثاني لفيدور .

بطرس الأكبر:

وصل بطرس إلى عرش القيصرية في سنة ١٦٨٢ وكان له من العمر تسع سنوات ؛ وتميز بالذكاء . وكان من المفروض أن يظل تحت وصاية والدته ، ولكن إحدى أخواته استولت على هذه الوصاية ، واحتفظت بها مدة سبع سنوات .

ولقد أرسلته أخته إلى إحدى الأديرة القريبة من موسكو والتي كانت مخصصة للإقامة الإجبارية للأجانب ؛ وكانت تضم السفراء والتجار والباحثين عن الوظائف في روسيا ؛ وكان يقيم فيها عدد من الألمان والهولنديين والإسكتلنديين . وأثر ذلك على تربية بطرس ، وعلى تفتح آفاق فكره منذ صغره . وفي سنة ١٦٨٩ ، عرف بطرس أن أخته قد أعطت نفسها لقب القيصرية ، وأنها أعلنت عزمها على الاحتفاظ به ! فقام بمساعدة أعوانه بالهجوم عليها وحبسها في أحد الأديرة ، واستولى على الحكومة .

وكان اتصال بطرس بالأوروبيين في موسكو من أهم أحداث صباه ، والعامل المقرر في حياته كلها . فلقد تعلم عنهم بعض الألمانية والهولندية ، ومباديء العلوم والحساب والهندسة ، واستكشف عن طريقهم بعض مظاهر الحضارة الغربية ، الأمر الذي حرك فيه الرغبة في فرض هذه الحضارة على أمبراطوريته ، التي كان أهلها يعيشون معيشة شبه آسيوية .

وكانت الروسيا بحاجة لكي تصل إلى ذلك إلى أن تتصل بالغرب . ولكن السويد كانت تسيطر على سواحل بحر البلطيق ، وتمنع روسيا من الوصول إليه . أما الدولة العثمانية فإنها كانت تسيطر على مصبات الدون والديسبر ، وتمنع روسيا من الوصول إلى البحر الأسود ، وكانت بولندا تمنع روسيا من الاتصال بوسط أوروبا . ولذلك فإن بطرس كان في حاجة إلى

فتح نافـذة تطل على أوروبـا . فأصبحت مهمتـه مزدوجـة ، وتتلخص بضرورة تطويـر روسيا من الـداخل وتغييـر حالتهـا الخـارجية . وأنفق بـطرس ستـة وثـلاثين عـامـاً من حكمـه (١٦٨٩ ـ ١٧٢٥) .

وتحقيق ذلك الهدف قد أكسبه لقب (بطرس الأكبر) . ذلك بالإضافة إلى أعماله الأخـرى ، جعل القـول بأن حكم بطرس يميز ببدأ التاريخ الحديث للروسيا لا يبعد كثيـراً عن الحقيقة ، فهو قد جعل دولة شبه آسيوية تعيش في العصـور الوسطى تتصل اتصالاً وثيقاً بالحضارة الغربية ، وجهد كثيـراً لتستبـدل الروسيـا عاداتهـا الآسيويـة القديمـة بـطرق الحيـاة الأوروبية الحديثة ، كما أعاد تنظيم الروسيا العسكري وجعلها تقف على قدم المساواة مع دول أوروبا العظمى .

كان بطرس ضخم الحجم ، ويصل طوله إلى ما يزيد على المترين ، ولكنه كان خفيف الحركة ، ويتميز بقـوة غير عادية ، وبقوة تحمل لا توصف . وكان في وسعه ، مع أربع ساعات من النوم أن يواصل عمله ومجهوده لفترة ٤٨ ساعة وبمنتهى النشاط . وكان لا يطيق البقاء بـدون عمل ، ويعيش في حركة دائمة ، يسافر في أمبراطوريته ويصدر الأوامر ويقـود وحـدات الجيش أو أحـد السفن ، ويخـطط المــدن الجديدة ويعمل تاجراً في دار الصناعة ويبني المنازل ويجري العمليات الجراحية وينزع الأسنان وكان يحتل طاقة جسمانية ، في الوقت ا لذي تميز فيه بالذكاء . ولكنه كـان ينقل دون أن

يبتكر . أو حتى يختار ما يلائم بلاده ، ولذلك فإن الروسيا أصبح لها ، مع تطويره لها جيشاً ألمانياً وأسطولاً هولندياً وإدارة سويدية . وكان يمتاز بالمثابرة للوصول إلى أهدافه ، مهما صادف من عقبات ومعوقات . ومن كلماته المأثورة : « أن السويديين سيحاربوننا لفترة طويلة . ولكن مع استمرار هزيمتهم لنا سيعلموننا كيف ننتصر عليهم » .

كان بطرس في الواقع رجلاً غير عادي جمع بين المتناقضات . فهو يبدو متوحشاً قاسياً محباً للذات ، لا يلقي اعتباراً للحياة الإنسانية ، ولا يتورع عن صبغ يديه بأبشع الجرائم . ومع ذلك كان من أعظم حكام عصره .

وكان بطرس يعتبر أنه مالك روسيا بأراضيها ، وسكانها ، ولكنه كان يعتبر نفسه خادم لروسيا الأول ، في نفس الوقت . تنازل عن الأملاك التي ورثها للدولة ، وكان لا يتسلم سوى رايته بصفته نجاراً في الأسطول ، نقيباً في الجيش ، ثم رفع هذا الراتب الأخير بعد أن ترقى ، وهو قيصر إلى رتبة كولونيل فتقاضى راتب هذه الرتبة . وكان هذا يفسر إهماله لهندامه وملابسه وإقامته حفلاته على حساب أصدقائه الأجانب ، وفي بيوتهم . ولكنه أنشأ لروسيا جيشاً قوياً ، وأسطولاً له قيمته وهما وسائل الوصول إلى القوة والعظمة .

الحياة العائلية لبطرس الأكبر :

عندما استلم بطرس مقاليد السلطة وله من العمر ١٧ سنة

اهتم ببناء أسطول بحري وأهمل زوجته أودوكسي التي أنجبت له طفلاً يدعى ألكسي .

رغم ذلك كان لبطرس العديد من العشيقات في الحي الألماني من موسكو . وكانت العشيقة المفضلة لديه تدعى (أناموش) . ومن رفاق بطرس في حلقات الدعارى الأمير كواركين والسويسري الأصل فرنسوا لوفور . وحسب قول الأمير أن بطرس فتح في إحدي الليالي ١٨ قنينة خمر وتزوج ١٨ إمرأة عذراء .

عندما بلغ بطرس الـ ٢٥ من عمره أصبح يعتبر السيد المطلق لأوروبا . فقد اتبع نظاماً صارماً في حياته رافضاً كل تحرشات الحسنوات . وراح يرتدي لباساً بسيطاً ويستقبل السفراء بدون أبهة القيصرية ولا بذخ في المظهر الخارجي . وقد قال في إحدى اللقاءات صراحةً أنه متزوج من الجيش في السراء والضراء وفي الحياة والموت .

أثناء حرب بولتافا تعرف إلى هيلانة كاترين من أصل ليفوني ومن عائلة وضيعة . فقد تزوجها بطرس وأنجبت له بنتان وصبي . قبل أن تتزوج هيلانة من بطرس عاشرت عدداً من الضباط إلى أن باعها تري سويدي إلى رجل بولوني الذي أجبرها على ممارسة الدعارة مستفيداً من جمالها .

ومما أثار إعجاب القيصر بطرس بهيلانة برودة أعصابها ، فلا يثيرها شيء ولا يذهلها شيئاً آخر ، إنها

تستوعب كل شيء وتنسى كل ما يطلب منها أن تنساه ، فضلاً عن أنها ذات شجاعة خارقة . مع ذلك لم يكن بطرس وفياً لها بل استمر في حضور حفلات العربدة من حين إلى آخر .

في خضم حياة البذخ هذه نسي بطرس ابنه ألكسي من زوجته الأولى . أما وزيره اليهودي شافيروف فقد رغب بتزويج إليزابت الابنة الثانية لبطرس من ملك فرنسا لويس الخامس عشر ، وقد سافر شافيروف لهذه الغاية إلى باريس .

أما ألكسي الذي تزوج من الأميرة شارلوت فقد تلقى من والده بطرس عدة رسائل تهديد ووعيد وتوبيخ لحين دخل الرعب إلى قلب ألكسي فهرب من جور والده إلى أوروبا سائحاً . بالمقابل بقيت الابنة البكر لبطرس (كاترين) إلى جانب والدها حتى أنها تملكت قلبه وأصبح يشعر بالفراغ عندما لم يراها .

عندما مرض بطرس بإحدى الأمراض الزهرية حيث تألم كثيراً أعلن في ٧ أيار ١٧٢٤ عن تتويج كاترين كأمبراطورة على روسيا . إلا أن بطرس تفاجأ بأن لكاترين عشيق يدعى وليام مونس شقيق آنا إحدى محظياته . عندها أراد الانتقام منه ، فقد دعاه إلى عشاء وألقى القبض عليه وأعدمه في ٢٨ تشرين الأول ١٧٢٤ ، ثم أرسل رأس مونس على طبق من الخمر إلى ابنته كاترين . غير أن هذه الأخيرة لم تهتم للأمر مما أثار غضب بطرس الذي حطم أمامها زينة جميلة . لكن كاترين

أجابته هل أنت مسرور لتحطيمك الزينة الجميلة ؟ . وبعد أن اعتلت صحة بطرس كثيراً تصالح مع كاترين واعترف لها بمنصب القيصرية .

وثيقة من سهرات بطرس ـ يوميات (الفولشتيني بير خفولتس) :

أتحدث هنا باختصار عن هذه السهرات وعن القواعد المتبعة فيها .

أولاً : توزع هذه السهرات على جميع الوجهاء ولكن بلا مراعاة لنظام خاص أو تواتر : فالقومندان يسأل صاحب الجلالة الأمبراطور عن مكان عقد الإجتماع فيأمر الأمبراطور بتعيينه ، أو يسأل الوجهاء أنفسهم في وكيف يفضلون عقد الإجتماع . وبعد ذلك يعلن للضيوف قبل انفضاضهم ، عن مكان الإجتماع التالي . . . ومن حق كل شخص حضور السهرة .

ثانياً : لا ينبغي لصاحب الدار أن يستقبل أحداً خارج الغرفة ولا يودعه ، ولو كان هو الأمبراطور نفسه .

ثالثاً : في غرفة الرقص يجب أن تهيأ طاولة عليها غلايين وتبغ وشظايا خشبية (تستعمل بدل الورق لإشغال الغلايين) ، وعدة طاولات أخرى للعبة الشطرنج والضامة ، إلا أن أوراق اللعب في السهرات شيء لا يطاق فلا يقدمونها .

رابعاً : يبدأ الرقص رب البيت أو ربة البيت أو أحد أهل البيت . . .

خامساً : كل شخص حر في فعل ما يريده ، إنه يستطيع أن يـرقص أو يـدخن أو يلعب أو يتحـادث أو يتـطلع إلى الآخرين . . .

غير أن رب البيت غير ملزم ، بل لا يجسر على أن يجبر الضيوف على الشرب أو الأكل . فهو يستطيع فقط أن يخبرهم عما لديه من الطعام والشراب ثم يتركهم في حرية تامة . . .

أما الذي لا يعجبني في هذه السهرات فهو :

أولاً : تدخين التبغ ولعب الضامة في الفرقة حيث توجد النساء ويجري الرقص ، مما يبعث الروائح الكريهة ويحدث الطقطقة ، وهذا غير ملائم تماماً في حضور النساء وعند عزف الموسيقى .

ثانياً : جلوس النسـاء منعزلات عن الـرجال بحيث لا يجوز الحديث معهن ولا يمكن أن تقول لهن ولا كلمة واحدة : « وعندما لا يرقصن ، يجلسن جميعاً كالخرس ينظر بعضهن إلى البعض الآخر » .

فضلاً عن هذه الوثيقة أحدث بطرس تبديل وتغيير في أمر الزواج ، فإنه بعد أن كان طالب الزواج لا يرى خطيبته إلا بعد أن يقترن بها صار يجتمع بها في كل أوقاته ويعاشرها كغيرها وقد دخل في عقولهم أن هذه العادة القديمة التي لا تزال باقية بين بعض الطوائف والملل هي حسنة عند من يسوغ لهم دينهم

أخذ أكثر من زوجة واحدة ولا يمنعهم من الطلاق عند الاقتضاء بخلاف الدين النصراني الذي يحتم بوجوب الاكتفاء بزوجة واحدة لا تفصل إلا بالموت . ولهذا رأى بطرس من الضروري معاشرة اللواتي يعتمدون على الزواج بهن وأن يروهن قبل الوقوع بهن . وهذا من مقاصد بطرس لأنه قصد أن يعود رعيته على عوائد الأمم المتمدنة التي أقام بها زماناً واختار أحسن عوائدها .

ومن أعمال بطرس توسيع دائرة الحرية الشخصية واستئناس الرعية بعضهم ببعض ولذلك أنشأ الجمعيات الاحتفالية وأكثر من المآدب والمحافل العامة وأمر أن يحضر تلك الاحتفالات النساء والبنات وهن لابسات ملابس نساء جنوبي أوروبا وجعل تلك الجمعيات كمواسم وأعياد تنتظر من آن إلى آخر من رجال ونساء للإجتماع والمخالطة .

الفصل الثاني

سفر بطرس الأكبر وسياحته الأولى

بعد الانتصار الذي حققه بطرس الأكبر على تركيا وحصوله على آزوف ، رأى أن يبذل مجهوداً لتقوية التحالف الأوروبي ضد الخلافة الإسلامية . لذلك قرر عام ١٦٩٧ ، أن يبدأ رحلاته المشهورة إلى أوروبا لهذه الغاية وفي الوقت نفسه لدرس فنونها ومجتمعاتها الصناعية . لكن وجد بطرس أن إرسال (سفاره عظمى) تتكون من كبار مستشاريه إلى دول أوروبا العظمى لا تتحقق غايتها إذا كان هو على رأسها رسمياً . لهذا جعل نفسه من أتباع ثلاثة من قواد بلاده . وهكذا كان سفره متخفياً بصفة خادم لا يظهر قط أنه صاحب البلاد الروسية وأمبراطورها ، والقواد المذكورين هم الجنرال لوفورت والفيكونت ألكسيس غليون ، وكيل الجيش العام وحكمدار سيبيريا الذي عقد شروط الصلح مع عساكر سفراء الصين ، ودونتسين دياك كاتب سر الملك . وكان هذا الأخير قد أقام مدة طويلة مستخدماً في دول أجنبية وعارفاً بعوائدهم وأطوارهم وكان مع كل قائد أربعة كتاب واثنا عشر مديراً وخمسون نفراً من الضباط . وحسب المصادر بلغ مجموع

البعثة إلى أوروبا مائتي رجل بينهم بطرس بصفة تابع ولم يكن له من أسباب الرفاهية والتنعم ما يليق بمن هو مثله بل اصطحب معه خادماً ورجلاً قصيراً لأجل السخرية وفراشاً بسيطاً من فرش الخدم كي لا يعرف من بينهم . ومن أمعن النظر في تصرف هذا القائد يتحقق أنه لم يسبق له نظير في تاريخ العالم . ولم يذكر قط أن ملكاً شاباً في سن ٢٥ سنة يخرج عن ممالكه لأجل غاية نافعة لبلاده ، كما يتحمل مشاق السفر ويخدم خدمه لقصد أن يدخل إصلاحات على إدارة بلاده ويؤهل أهلها أن يذكروا في صدر التاريخ . وكان موت أخيه إيفان وانتصاره السابق على التتار وسجن أخته الأميرة صوفيا واعتقاده بمحبة الناس له جعله أن يكون مطمئناً على المملكة في مدة غيابه . وقد عهد بالوكالة إلى رجلين من أعيان الروسيا إسم أحدهم ستركنيف والآخر رومادونوسكي . لم يطلق لهم بطرس التصرف بل أمرهما أن يتذاكرا عند وقوع الأمور المهمة مع أمراء الدولة والمجلس الأعلى . ولما كان يخشى من وجاق الإسترلتش واعتدائه وإحداثه الفتن في مدة غيابه فرقه على حدود القرم لمنع غارات التتار والمحافظة على آزوف وأقام على مدينة موسكو الجيش الذي جدده الجنرال غوردون تعزيزاً للراحة والأمن فيها . وهكذا كان قد دبر حال بلاده قبل سفره بحكمة وسافر مطمئن البال أثناء بعده عنها .

وإن كانت هذه السياحة محمودة العقبى إلا أنها كانت

تمهيداً لحرب سفكت فيها دماء كثيرة وعطلت إنفاذ مقاصده في بلاده مدة طويلة .

تزامن سفر بطرس إلى أوروبا وهذه القارة تعيش حالة حرب بين بعض بلدانها والبعض الآخر يشهد حالة اضطراب داخلي . فالسلطان مصطفى العثماني كان منهمكاً بمحاربة ليوبولد ملك النمسا من جهة المجر وحكومته مضطربة من استيلاء بطرس الأكبر على آزوف وهو يخشى منه التقدم في البحر الأسود وقد خرجت المورة من يده ودخلت في يد البنادقة . وحنا سربيسكي ملك بولونيا الذي اشتهر بنصرته على كوكزيم وبإنقاذ مدينة (ياج) توفي في ١٧ حزيران عام ١٦٩٦ وبسبب موته تنازع مملكته كل من أغسطس حاكم سكس وآرمند أمير كنتي من العائلة البوربونية . وإن كان قد صار انتخاب الثاني عليها إلا أنه ما تولاها بل فاز بها أغسطس . وسنة ١٦٩٧ توفي كارلوس الحادي عشر ملك أسوج وخلفه ابنه كارلوس الثاني عشر وهو ابن ١٥ سنة ولموته هذا زادت آمال بطرس بتوسيع بلاده من جهة أسوج غير مكتفٍ بتوجيه أنظاره إلى جهة البحر الأسود والاستيلاء على ما يمكنه الاستيلاء عليه في المستقبل ولن يغير مطامع كان يضمرها إلى حين الحلول الوقت المناسب . وكانت دولة النمسا في حالة حرب مع الدولة العثمانية والدولة الفرنسية بالإتفاق مع كل دول إسبانيا وإنكلترا والفلمنك وقد أشرفت في ذاك الوقت على عقد

الصلح واجتمع لهذا الغرض وكلاء الدول المذكورة في قصر رسويك بمدينة هايا .

وقد انتهز بطرس هذه الفرصة وسار في سنة ١٦٩٧ من طريق مدينة نوغورود الكبيرة حتى انتهى إلى طريق أستونيا إلى ليفونيا وهما إقليمان تنازعهما سابقاً الروس لكن استولى عليهما الأسوجيون . رأى بطرس في رحلته خصب ليفونيا وحسن موقع مدينة (ريفا) قاعدة هذا الإقليم فتحركت فيه دواعي الطمع ورغب في تلك الأرض وأصرَّ في نفسه أنه لا بد ذات يوم أن يكون صاحب هذين الإقليمين وطلب بواسطة السفارة التي هو فيها مشاهدة القلاع والاستحكامات ومقدار القوة التحصينية ، فحاول الكونت دي البرغ حاكم المدينة منعه من ذلك ولم يعتني بهذه السفارة . فلم يقلل هذا من عزمه وبقي مصراً على طمعه منتظراً سنوح الفرص والعودة إلى البلاد .

ثم سار بطرس ببعثته من هناك إلى بروسيا البرند برغيه وهي التي كان قدماء الفندال يسكنون قسماً منها في الزمان القديم وهي فقيرة قليلة العمران غير أن ملكها قد جدد ديوانه أبهة وجعل له رونقاً مقبولاً فتلقى بعثة بطرس بما يليق بهم وأكرمهم . وكان أعيان مدينة برلين عاصمة بروسيا مرتدين ثياب فرنسية مزينة بخلاف الروس فإنهم كانوا يرتدون شكل ملابس أهل المشرق وعلى رؤوسهم قلانس مرصعة باللآلىء والجواهر وسيوفهم مرسلة إلى أحزمتهم ، ونشأ عن تفنن هذه

الملابس منظر عجيب ورونق غريب .

ثم قصد بطرس ببعثته طريق إقليم بوميرانيا وبرلين ومن ثم افترقوا فذهب بعضهم في طريق مفد نبرغ وبعضهم في طريق هامبورغ وهي مدينة قديمة العهد تجارية المركز غير أنها لم تكن في تلك الأيام كثيرة الثروة والتحسين . كما سار بطرس فيما بعد من هامبورغ إلى مدينة منذان واجتاز إقليم وستفاليا حتى انتهى إلى أمستردام . وكان بطرس قد سبق البعثة إليها من قبل وصولهم بخمسة عشر يوماً فنزل أولاً بدار شركة الهند إلا أنه انتقل منها إلى منزل صغير اتخذه لنفسه في الترسانة البحرية وهو متزي بزي قبطان وبعد ذلك ذهب ببعثته إلى قرية سردام التي هي معمل للسفن في تلك البلاد في ذلك الوقت لأنها كانت كبيرة عامرة كثيرة الأشجار وعند وصوله إليها تعجب من كثرة الأشغال فيها ومن مواظبة سكانها عليها وسرعتهم في إنشاء السفن . وتعجب أيضاً من كثرة المخازن ومن الآلات التي بواسطتها يسهل العمل وتكون بها الصناعة في غاية من الإحكام والإتقان .

يومها قرر بطرس شراء مركب غير صالح للاستعمال وبادر إلى إصلاحه بنفسه ثم أخذ يتعلم صناعة أجزاء السفن وصار يشتغل بذلك كأحد الفعلة وسلك بعيشته مسلك واحد منهم ولم يوجه بفكره إلى بناء السفن فقط بل كان يشتغل معهم في معامل الحديد والحبال وفي المخازن المعدة لنشر

الأخشاب والمصانع لعصر الزيت وصناعة الورق ، وتعلم أيضاً عمل الأسلاك المعدنية المتطرفة وقيد إسمه في دفتر الترسانة بطرس ميخائيل وكان معروفاً عندهم بالمعلم بطرس .

ولم يكن للعمال في باديء الأمر مخالطة به لما تأكدوا أنه ملك فكانوا يهابونه إلا أنهم ألفوا عليه لما رأوه على العيشة البسيطة نظيرهم ووجدوا فيه حب الميل إليهم وموانسته ورغبته بالاختلاط بهم وصاروا يعتبرونه كواحد منهم . وبينما هو منغمس في الشغل والعمل في تلك المعامل في قرية سردام إذ بلغه خبر أكيد بأن حكومة بولونيا عقدت مجلساً لانتخاب ملك لها وقد اختلف المجلس وانقسم على نفسه إلى قسمين قسم يطلب أغسطس حاكم السكس والثاني يطلب الأمير دوكونتي الفرنسي وكان بطرس يميل إلى الأول أي إلى أغسطس فوعده أن يمده بثلاثين ألفاً من جيوشه وكتب وهو في المعامل أمراً إلى جيوشه بالتوجه لإعانة أغسطس وكانت يومئذٍ مجتمعة في أوكرانيا .

رغم ما قرره بطرس بقي يتعلم الفنون السابق ذكرها ويصرف كل عنايته واهتمامه إلى اتقانها حق الإتقان . كما خصص وقتاً من أوقاته ليذهب إلى أمستردام لدرس فن التشريح على يد أحد مشاهير علماء هذا الفن فعمل عمليات جراحية ونجح نجاحاً جعله يكون على استعداد لنفع بلاده عند الحاجة . إضافة إلى ذلك تعلم بطرس علم التوليد في منزل

برغمستر وستان وهو رجل من الأهالي حاز الشهرة بسبب حبه لوطنه وبذله الأموال الكثيرة في تحصيل ما يكون به النفع العام وبإرساله إلى جميع الأقطار رجالاً من أرباب المهارة والذكاء ينفق عليهم الأموال الكثيرة ليبحثوا عما يوجد فيها من الغرائب وبإرساله أيضاً سفناً على حسابه لاكتشاف أراضٍ جديدة . وبقي بطرس على عمله في أمستردام وسردام إلى أن سافر إلى أوترخت وهايا من غير احتفال ومباهاة تليق بمنصبه الملكي قاصداً بذلك غليوم ملك إنكلترا ورئيس جمهورية الفلمنك ، ولما تلاقيا سلم أحدهما على الآخر بمودة وإخلاص ثم شاهد دخول سفرائه إلى الديوان الإنكليزي وكيفية ملقاهم وما صنع لهم من الاعتبار على الطرق الإنكليزية فسر منه ، ولذلك أوعز إلى سفارته أن تهدي الحكومة البريطانية ستمائة جلد من السمور النفيس فأهدي مقابلها لكل واحد منهم سلسلة من الذهب وثلاث مركبات . وقد زار هذه السفارة وكلاء الدول المفوضون الذين كانوا مجتمعين إذ ذاك من جمعية رسويك لانتخاب ملك بولونيا ما عدا وكلاء فرنسا فإنهم لم يأتوا لزيارة السفارة المذكورة وليس ذلك لكون الأمبراطور بطرس منتصراً لأغسطس ضد الأمير دوكنتي الفرنسي بل لاشتداد الصداقة التامة التي كانت واقعة حينئذٍ بينه وبين غليوم ملك الإنكليز إذ أن غليوم كان لا يرغب الصلح مع فرنسا أصلاً .

وبعد أن أقام بطرس هناك مدة رجع إلى أمستردام وحده وعاد إلى ما كان عليه في العمل في هذه المدينة ومن ثم أنجز

بنفسه بناء سفينة كبيرة تحمل ستين مدفعاً وكان باشر بمد هذه السفينة قبل سفره وبعد أن أنزلها البحر أرسلها إلى ميناء أركنجل إذ لم يكن له حينئذٍ في الأوقيانوس غير ذلك المرفأ . كما لم يقتصر حال وجوده في أمستردام على تعلم الصنائع والفنون بل كان يدخل بخدمته الهاربين من الفرنسيين والنمساويين والإيطاليين ويبعث بكثير من أرباب الصنائع المختلفة إلى موسكو ليقيموا فيها ويشتغلوا على حساب المملكة أو على حسابهم ولا يبعث منهم إلا الذين يتأكد مهارتهم وشاهد بنفسه براعتهم في نفس تلك الصنعة لأنه كان قد برع بأكثر الصنائع وصار يحسب بالدرجة الأولى لرغبته بذلك وفطنته وذكائه ولا سيما فن رسم الخارطات والجغرافيا قاصداً بذلك إصلاح خارطة بلاده ورسم جبالها وأنهارها وطرقها ترويجاً لغاياته ومصلحته . وقد حفظ الخارطة التي رسمها بيده بمساعدة رجل نمساوي اسمه براكيل تهيئه لوصل بحر الخزر بالبحر الأسود وبحر آزوف ببحر الخزر أيضاً وهو مما يستبعده الفعل ويكاد لا يصدقه غير أنه كان يتقوى ويحقق آماله عندما يرى أن النجاح حليفه ويخدمه في كل مشروعاته .

في تلك الأثناء انتصرت جيوشه على التتار في شهر آب سنة ١٦٩٧ بالقرب من بحر آزوف وتغلبوا أيضاً على مدينة الذهب المسماة أركابيا ويقال لها عند الفرنسيين بريكوب ، فنال بذلك عظيم اعتبار وكبير موضع في أعين أوروبا ولا سيما عند الذين كانوا يلومونه على تركه ملكه وبلاده وإقامته على

تلك الحالة المهنية بشأن الملوك والحط من قدرهم وكذلك إهماله حالة جيوشه ببعده عنهم ليشتغل بالفلسفة والطبيعيات والصناعة وغيرها .

بعد النصر الذي حققه جيشه قرر بطرس العودة للإجتماع ببعثته في إنكلترا وذلك سنة ١٦٩٨ فأرسل له غليوم سفينته الخصوصية ترافقها سفينتين حربيتين. أقام بطرس في العاصمة الإنكليزية مدة وهو على ما تعوده في أمستردام من بساطة العيش والمأكل وأتم هناك ما كان باقياً عليه من معرفة فن صناعة السفن ، إذ كان الإنكليز أبرع وأكثر إتقاناً بمد السفن على القياس الهندسي وبرع براعة كلية في هذا الفن حتى أصبح من أكبر أساتذته وشرع هناك بمد سفينة على الطراز الإنكليزي فجاءت متقنة جداً تحسب من أفخم السفن وأسرعها سيراً . وقد مالت أفكار بطرس إلى تعلم صناعة الساعات لأنه رآها في لندن متقنة وتحتاج إلى دقة واتساع عقل فصرف وقتاً على تعلم أصولها وفروعها . وبالاختصار إن جماعة المؤرخين اتفقوا على أن الأمبراطور بطرس قد تعلم في سياحته هذه كل الصنائع والفنون أو بالحري أكثرها ولا سيما صنعة السفن فإنه اشتغل فيها من سبك المدافع إلى فتك الحبال . وقد باشر كل ذلك بيده ودخل معامل كثيرة متنوعة .

وقد رأى أن دوام الصداقة بينه وبين الإنكليز أمر ضروري لا غنى عنه ورأى أن أكبر وسيلة لذلك استخدام

جماعة منهم في بلاده كما فعل ببلاد الفلمنك بل كان يرى أن في الإنكليز مهارة ومعرفة صناعية أكثر من غيرهم فاختار لذلك نفعين أولاً دوام محبة الإنكليز له وركونهم إلى ميله إليهم وثانياً ترقية بلاده بمعارفهم وصنائعهم وكان من جملة الذين أدخلهم في خدمة دولته المهندس الماهر فرغسون الأيقوسي وهو الذي رتب العمليات الحسابية بديوان روسيا مع أنهم كانوا قبلاً لا يعرفون هذا العلم بل اصطلحوا على عوائد التتار فيها وهي العدّ بحبوب مستديرة ينظمونها في سلك من النحاس وهي وإن كانت تقوم عندهم بالفرض المطلوب إلا أنها كانت تذهب بكثير من الوقت فضلاً عما كان يقع بسببها من تشوش الأذهان وحصر الأفكار والصعوبة في ضبطها إذ أن بعد العدّ لا يعلم الإنسان هل غلط في عده أولاً ولهذا كانت كثيرة الأخطاء . وقد رافق فرغسون شابان إنكليزيان من مكتب الرياضيات للعمل في بلاده . ولذلك كان فرغسون له المقام الأول عند بطرس حتى أنه لازمه على الدوام حيث أنه كان يرصد وإياه الكواكب والأجرام وبحسب كسوف الشمس والقمر وكان المهندس بري يشهد له بمعرفة علم الفلك معرفة كافية ، وقال في كلامه إن بطرس برع جداً بمعرفة الأجرام السماوية وقوانين تجاذبها وسيرها ومعدلها . وقد نشر بطرس هذا الفن في بلاده وأجهد نفسه في أن يتعود أهلها عليه بواسطته يمكنهم من رفع الاعتقادات الخرافية من بينهم ومن ثم بعث بطرس بالمهندس بري إلى بلاده لعمل بعض قناطر وجسور على الأنهر الكبيرة

ووصل بعض الأنهر بالأخرى وتخطيط خارطة تسهل له وصل بحر الخرز بالبحر الأسود والبحر المحيط بواسطة خلجان إذ كان هذا الفكر يشغله على الدوام دون أن يفكر بما يحول دونه من الصعوبة في مثل تلك الأيام .

ومما يسترعي الاهتمام هنا أن جماعة من تجار الإنكليز طلبوا إلى الأمبراطور بطرس أن يسمح لهم ببيع التبغ في بلاده فيدفعوا عوضاً عن ذلك إلى خزينته خمسة عشر ألف ليرة . وكان قبل ذلك الحين ممنوع بيع هذا الصنف في الروسيا حيث أن البطاركة كانت تزعم أن التدخين مخالف لقواعد الدين النصراني ولذلك لا يجوز استعماله ولهذا السبب كان ممنوعاً إدخاله كلياً إلى بلاد الروسيا . غير أن بطرس الأكبر اعتقد أن في ذلك لا صحة له وأن الدين لا يمنع قطعاً التدخين ولا يتعلق أصلاً به وأن سبب منعه كان أما من قبيل الغايات أو لتنفيذ مآرب البطاركة الذين كانوا يتدخلون في كل أمر فالذي يوافقهم صادقوا عليه وسلموا به والذي لا يوافقهم منعوه وحرموه مستندين على أن الدين لا يسمح به وعلى هذا رخص بطرس ببيع التبغ في بلاده ودخوله دون معارضة البتة .

وعند ذلك عزم بطرس على السفر إلى لندن قاصداً مبارحة تلك البلاد والرجوع إلى بلاده عن طريق النمسا وقبل سفره أمر غليوم ملك الإنكليز بقيام مناورة بحرية عسكرية إكراماً له فأعجب منه جداً وكان يرى ذلك وهو متأنٍ متمعن

حتى ظهر من حالته أنه لا بد أن يجري مثل هذه الحرب فعلاً مع الأسوج وغيرهم فلا يضيع شيئاً مما يراه دون أن يستفيد منه ويتعلمه ليحصد ثمرته ذات يوم .

وبعد ذلك أهدى غليوم بطرس بارجة كان من عادته ركوبها عند سفره إلى الدانمارك وتسمى رويال ترنسبورت وهي جميلة جداً متقنة الصنعة مركب عليها وعاد إلى بلاد الفلمنك في شهر آذار من سنة ١٦٩٨ وأخذ معه ثلاثة من رباني السفن الحربية وعشرين قبطاناً وأربعين ضابطاً وثلاثين جراحاً ومائتين وخمسين من الطهاة وأكثر من ثلثماية رجل من أرباب الصنائع والحرف المتنوعة وهؤلاء جميعهم ركبوا البحر في هذه السفينة وساروا من بلاد الفلمنك إلى ميناء أدكنجل ومنها وزعهم إلى أمكنة متعددة بحسب الحاجة التي كان يراها وبعث بالذين كانوا قد دخلوا بخدمته وهو ببلاد الفلمنك على السير في طريق مدينة نرما وهي وقتئذٍ في حكم الأسوج . وسافر الجنرال شرمتوف رئيس البعثة إلى روما وإلى نابولي ثم إلى البندقية ومنها إلى جزيرة مالطة ورحل بطرس إلى النمسا مع من بقي من أتباعه وكان قصده مشاهدة ما عند تلك الدولة من المعارف ومن العلوم العسكرية والروابط الحربية لأنه لم يكن يقصد في سياحته هذه تعلم المعارف والصنائع فقط بل كان يقصد في سياحته هذه تعلم المعارف والصنائع فقط بل كان يقصد معرفة أحوال الدول وقواتها وميزانية سياسة كل دولة من الدول التي زارها . واجتمع بالأمبراطور ليوبولد أمبراطور النمسا وكان

إجتماعهما خال من كل تكليف واحتفـال إذ كان بـطرس قد التقى أمبـراطور النمسـا وهو كـأحد النـاس أي بغيـر صفتـه الرسمية .

لم يـرَ بطرس في بلاد النمسا من المناورات الحربيـة والألعاب العجيبة ما يستحق الذكر إلا الموسم المسمى عندهم بموسم المضيف والمضيفة وهذا الموسم كان قد بطل عندهم قبلاً إلا أن ليويـولد جـدده حباً بضيفـه الجـديـد وهـو على الاصطلاح الآتي : أن الأمبراطور والأمبراطورة تشكلا بشكل رب المنزل وربته وابنهُ الأكبر الملقب بملك الرومانيين وسائر أولاده وأعضاء عائلته يلتقون في غرفة كل رجل من الضيوف بحيث يتـزين كل منهم بـزي من الملل ويلبس مـلابسهم . وبالقرعة يأخذ كل منهم ورقة من جملة الأوراق مكتوب عليها اسم تلك الملة وكيفية لبسها وقد يتفق أن الأميرة تتزيا بـزي فلاحة ومثلها الأمير ومن ثم يذهبون إلى غرفة الرقص ويرقصون وهم بتلك الصفـات المتنوعـة وكل منهـم يجـري عادة الأمـة اللابس ملابسها بقدر استطاعته . وقد اتفق أن الأمير جوزف ولي العهـد والكونتـة دي ترون كـانـا على هيئـة المصـريين والأرشيدوق كارلوس والكونتة دي ولستين على هيئة الفلمنكيين في عهـد شارلكـان والأرشيدوقـة ماريـا اليصابـات والكـونت دوترون على هيئة التتار والأرشيدوقة جوزفين والكـونت دوور كلا على هيئة فلاحي شمال الفلمنك وأما بـطرس فكان من نصيبه أن تزي بهيئـة فلاحي إقليم فـريزة وكـانوا يخـاطبونـه

(بشان) بطرس روسيا الأكبر بما يخاطب به الفلاحون . وكان الأمبراطور والأمبراطورة النمساويين يقومان بخدمة ضيوفهما ولا سيما وهما على المائدة . هكذا كان الموسم الذي حضره بطرس في بيت الأمبراطور وإن كان ليس بذات أهمية تاريخية إلا أن ذكر هكذا له فوائد .

وبعد أن صرف بطرس أياماً في النمسا عزم على السفر إلى البندقية فبلغه خبر فتنة كبرى وقعت في بلاده اضطربت منها كل ممالكه وانتشرت أهميتها في غيرها من الممالك .

رجوع بطرس إلى موسكو وإخماد الفتنة :

أشرنا أن بطرس قبل سفره كان قد خاف من وقوع الفتن في بلاده فدبر أمور بلاده تدبيراً جعله مستريح البال مدة ليست بقصيرة لأنه فرق وجاق الإسترلتش وأقام في موسكو الجيوش المنظمة إلى غير ذلك . غير أن ما بدر من بطرس قد أغاظ بعضاً من الأمراء المسنين والقساوسة الذين خافوا من إضعاف السلطة والنفوذ اللذين كانا لهم . فالأمراء المذكورون كانوا يميلون إلى بقاء العادات القديمة على ما كانت .

وادعى القساوسة أن كل ما أحدثه بطرس هو من قبيل الكفر والإلحاد وانضم إليهم حزب الأميرة صوفيا وقيل أن إحدى أخواتها كان لها دخل بتحريض الأهالي على الثورة والخروج حتى وقع في قلبهم هم عظيم من دخول الأجانب بلادهم وأخذوا يتذمرون من ذلك إلى أن سمح بطرس أخيراً

بدخول الدخان إلى البلاد وبيعه فيها بحيث زاد غيظ القساوسة وكدرهم إذ كان ذلك بالرغم عنهم . ثم أن هذه الأوهام الفاسدة الباطلة سرت من الأهالي كالوباء إلى وجاق الإسترلتش الذين كانوا منتشرين على ضواحي إقليم لتوانيا فاجتمعوا وصاروا جميعاً إلى موسكو عازمين على إرجاع الأميرة صوفيا إلى الدير وتوليتها على الملك ومنع الأمبراطور بطرس من دخول البلاد حيث تجاسر على هتك حرمة عاداتهم القديمة . وبسبب هذه الفتنة حدثت معارك جمة بين الثائرين والعساكر المنظمة التي هي تحت قيادة الجنرالين سين وغوردون انتصرت بها العساكر وهزمتهم عن مدينة موسكو إلى بعد ١٥ فرسخاً .

أغاظ هذا الانتصار كثيراً من الأهالي غير الثائرين لأن القواد الأجانب يوقعون بأبناء بلادهم ويفوزون عليهم .

وعند وصول مثل هذه الأخبار إلى بطرس وهو في بلاد النمسا انسحب من هناك بطريقة سرية سائراً إلى بلاده لإطفاء نار تلك الفتنة فمر في أثناء طريقه على بولونيا واجتمع فيها بالملك أغسطس بطريقة سرية ودبر معه ما يكون به اتساع بلاده من جهة بحر البلطيق ثم سار من هناك ودخل موسكو بغتة دون أن يشعر به أحد فتعجب الجميع من ذلك وفي الحال باشر العمل بنفسه وكانت الفتنة مستمرة لكن كان النصر فيها لعساكر بطرس وقد قبضوا على كثيرٍ من الأشقياء وأودعوهم السجون

فعاقبهم عقاباً جسيماً لكن كلٍ بقدر ذنبه . وقد كافأ بطرس العساكر والقواد المنتصرين مكافأة حسنة وقتل عدواً من القواد الثائرين ومن القساوسة والأساقفة ومنهم من أماتهم بمرور العجلات عليهم وهم ملقون إلى الأرض ودفن امرأتين وهما على قيد الحياة وعلق كثيراً على الأسوار وأبقى كثيراً من جثث القتلى في الأسواق مدة يومين ولا سيما حول الدير الذي كانت فيه الأميرة صوفيا وأختها (أفذوكسيا) وأقام أعمدة من الحجر نقش عليها جناياتهم وعقوباتهم وبدد شمل من كان معهم بمدينة موسكو من أولادهم ونسائهم فانتشروا ببلاد سيبيريا وأسترخان وآزوف فنتج عن نفيهم وإبعادهم إلى تلك الجهات أن الأراضي المهجورة الخالية من العمران التي سكنوا فيها عمرت وتجددت فيها الخصب بحراثتهم وزرعهم .

الفصــل الثالث

التوسع الروسي خارج الحدود

انطلاقاً من أن نهضة الروسيا لا تنجز إلا بالأصول إلى المياه الدافئة لتسهيل الإتصال بالعالم الخارجي شنّ بـطرس الأكبر حروباً عديدة وطدت دعائم حكمه الداخلية ورفعت من مكانة دولته على الصعيد الدولي :

١ ـ الحرب الروسية ـ العثمانية :

قبل أن يقوم بطرس بزيارته الأولى لأوروبا ، أراد أن يقوم بعمل ملحوظ في السياسة الخارجية . فقـام في سنة ١٦٩٥ بأولى المحاولات الخاصة بفتح باب الإتصال بأوروبا . ولم يكن بوسعه القيام بذلـك إلا عن طريق الاستيـلاء على أحد الموانيء أما على بحر البلطيق وعلى حساب السويد وأما على البحر الأسود وعلى حساب الأتراك .

ودفعته العوامل إلى أن يبدأ الحرب ضد الأتراك خاصة وأنهم كانوا أكثر ضعفاً ، وكانوا مشغولين بالحرب ضد النمسا والبنـدقية كمـا أنه كـان في وسع الحـرب ضـدهم وهم من المسلمين أن تأخذ شكـل حروب صليبيـة علاوة على لـونها

السياسي ، وكان بقائهم في القسطنطينية العاصمة الأرتوذكسية السابقة للعالم ، يعمل على إيقاظ الروح الوطنية لدى الروس الأرثوذكس .

عـام ١٦٩٥ أعلن بطرس الأكبـر الحرب على الـدولة العثمانية وكان هدفه منع اعتداءات تتار القرم والتوسع جنوباً عبر الاستيلاء على ميناء آزوف الواقع على مصب نهر الدون . بدأ الهجوم عليه من البر ولكنه فشل في هذه المحاولة . ووجد بطرس أن الطرق العادية في الحصار عديمة الجدوى طـالما كان خصمه يتلقى الإمدادات بطريق البحر . فعمل على بناء أسطول وتم ذلك بسرعة في فصل الشتاء . وفي العام التالي التالي جدد محاولة الهجوم على آزوف بمعاونة بعض السفن لحصارها من البحر ونجح في الاستيلاء عليها ، وكان لذلك صدى في أوروبا . وشارك بطرس في هذه العمليات وبصفته أحد رجال المدفعية وكان له من العمر ثلاثة وعشرين عاماً . وسيحتفظ بهذا التواضع طوال حياته ، ولن يأخذ مسؤولية رتبة عسكرية إلا بعد أن يصل إليها بجدارة ، وستكون أكبر رتبـة عسكرية يمارسها في الجيش هي رتبـة كولـونيل . نتـج عن الاستيلاء على آزوف تحرير كل سهول حوض نهر الدون .

والتدخل الروسي في آزوف قد أضاف كثيراً إلى متاعب الأتراك . وفي إتفاقية (كارلو فيتز ١٦٩٩) بين الأتراك وأوروبا يتم تمزيق الدولة العثمانيـة بدرجـة خطيـرة وتحتفظ الروسيـا

بآزوف ، وبذلك تضمن لها مكاناً على البحر الأسود .

٢ ـ الصراع الروسي ـ السويدي:

احتلت السويد مركزاً مرموقاً في أوروبا في القرن السابع عشر . ولكن هذا المركز لم يكن يتناسب في الواقع مع مواردها الضعيفة ، إنما كان ذلك يعتمد على مقدرات ملوكها وكفاءة جيوشها ، ولذا كان إضمحلال السويد أمراً لا بد منه .

أما الظروف التي ساعدت السويد على التوسع فكانت عندما وضحت أطماع فرديناند الثاني الذي كان يسيطر على جيش والنشتاين ، أمير بوهيميا ، وأصبح في وسعه أن يسيطر على كل ألمانيا . وكان كاثوليكياً ويرغب في سحق البروتستانت ، وكان بصفته أمبراطوراً يرغب في تغيير دستور ألمانيا . حتى قبل صلح لوبيك أصدر الأمبراطور قراراً بضم كل الأملاك الكنسية النى كان البروتستانت قد أخذوها من الكنيسة الكاثوليكية إلى أملاكه . وفي الوقت نفسه رغب فردريك في تغيير دستور ألمانيا بشكل يجعل منه سيد ألمانيا ويجعل الأمبراطورية وراثية في أبنائه . وهكذا يتحول النبلاء إلى رجال بلاط بعد أن يفقدوا حقوقهم الانتخابية ويصبحون تحت حكم الأمبراطور المباشر الذي سيلغي إمارتهم ، التي بلغ عددها ما يقرب من أربعمائة ، ولا تكون هناك سلطة في هذه الأمبراطورية سوى رغبته .

وكان هذا المشروع يمثل خطراً واضحاً على دولتين

أوروبيتين هما : فرنسا والسويد . أما فرنسا فإن هذا المشروع كـان يهددهـا ، خاصـة وأنه كـان هناك هـايسبـورغ آخـرون يحكمون إسبانيا ، ويمكن للمجموعتين الإسبـانية والألمـانية وعن طريق ممتلكاتهما في إيطاليـا وميلانـو ، أن يوحدا بين قواتهما وبشكل يعيد تهديد فرنسا كما كان عليه الحال وقت أمبراطورية شارل الخامس وفرنسوا الأول ، أي منذ قرن مضى من الزمن . فكان من الضروري أن تتدخل فرنسـا . غير أن فرنسا كانت تواجـه بعض الصعوبـات الداخليـة ولذلـك فإن السويد التي ستتدخل أولاً . وسيقتصر دور فرنسا على تسهيل مثل هذا التدخل . فقد كانت السـويد مهـددة بطريق مبـاشر بالأمبراطور فرديناند لأنه كان يأمل في إنشاء قوة بحرية واستولى على دوقيتين تطلان على بحر البلطيق، وكـانت للسويـد كذلـك آمال بالنسبة لبحر البلطيق وتتعارض مع آمال فرديناند الثاني .

وكان ملك السويد في ذلك الوقت هو غوستاف أدولف الذي كان مغرماً بالحرب وعمل على تطوير التكتيك وحـول السويد إلى قلعة عسكرية تطل على بحر البلطيق . وكان لا يوافق على أن يقوم الأمبراطور بـالسيطرة على سـواحل بحـر البلطيق المواجهة لبلاده . وكان يرغب بتحويـل بحر البلطيق إلى بحيرة سويـدية خـاصة وأن بـلاده كانت فقيـرة ورأى أن مستقبلها سيكون مرتباً بالبحر . وكان صراع مع ملك بولندا . وما أن قام الأمبراطور فرديناند بمساعدة ملك بولندا حتى اتخذ غوستاف أدولف ذلك ذريعة للتدخل في ألمـانيا خـاصة وأن

ريشيليو قد أيده فنزل بقواته في تموز سنة ١٦٣٠ على سواحل ألمانيا . وفي الوقت نفسه اجتمع الدايت في راتيسبون وكان الأمراء الكاثوليك يخشون من أطماع الأمبراطور وكان ريشيليو يؤثر عليهم وطالبوا الأمبراطور بالتخلص من والنشتاين وبتخفيض عدد الجيش الأمبراطوري وهددوا بتعديل تأييده في حربه ضد غوستاف أدولف . ووافق الأمبراطور على رغباتهم سنة ١٦٣٠ وأصبح بالفعل بدون قوة وذلك في الوقت الذي عقد فيه ريشيليو تحالفاً مع غوستاف أدولف .

كان تدخل غوستاف أدولف نقطة تحول واضحة في حرب الثلاثين عاماً ، وكذلك في تاريخ الحروب الأوروبية الحديثة . وكان قد أدخل التعديلات على تنظيم الجيوش وتسليحها وترتيب القوات على أرض المعركة واستخدام التنظيم الرفيع بدلاً من التنظيم العميق .

وكان جيش والنشتاين يتكون من المرتزقة ، وكان هو الجيش الوحيد الموجود في ألمانيا في ذلك الوقت وسيجد نفسه في مواجهة جيش السويد الذي كان غوستاف أدولف قد قام بإنشائه . وكان جيش السويد جيشاً وطنياً جمع من الفلاحين السويديين من أجل الواجب لا المصلحة وكان مدرباً ويخضع لنظام صارم ، وكانت أسلحته متطورة ، ومن أجل تخفيف الثقل عن المحاربين فكانت كل من الحراب والبنادق أقصر في طولها كما أنها كانت قد استغنت عن فتيل البندقية

وأصبحت تستخدم الخرطوش الذي يجمع البارود والطلقة . كما أن المدافع كانت أخف وفوهاتها من النحاس ويجرها زوج من الخيل الأمر الذي يسهل الحركة والمناورة ويعطي سرعة إطلاق النيران . وكانت هذه ميزة كبيرة للسويديين في كل أرض وفي كل ظروف مناخيه . وبكفاءة نيران .

وصل غوستاف أدولف إلى ألمانيا لكي يجد أن البروتستانت غير قادرين على الحركة . ولكن الموقف تغير بعد حريق مدينة مجديرغ الذي نسب إلى جيوش الكاثوليك . وانتصر غوستاف أدولف في معركة بريتنفيلد ، قرب ليبزيج على قوات (العصبة) الكاثوليكية التي فقدت ٩٠٠٠ قتيل و ٦٠٠٠ أسير .

ولكن غوستاف أدولف اتجه صوب غرب ألمانيا بدلاً من أن يزحف على فينا وبوهيميا واستولت قواته على أقاليم الراين حيث أمضت فصل الشتاء ثم زحفت في ربيع ١٦٣٢ على بافاريا وواصلت عملياتها إلى أن احتلت ميونيخ في ١٧ أيار تمهيداً للزحف على فينا .

ولقد تمكن قائد قوات الأمبراطور من تكوين جيش جديد . وهاجم إقليم ساكس ، حليف غوستاف أدولف ، مما دفع بملك السويد إلى الإسراع لنجدة حليفه . فوقعت لوتزن في ١٦ تشرين الثاني سنة ١٦٣٢ التي قتل فيها غوستاف أدولف . ولقد ظلت قوات السويد تحارب في ألمانيا إلى أن

هزمت في معركة (نوردلينجن) في ٦ أيلول ١٦٣٤ فأسرع الأمراء البروتستانت بعقد صلح براغ مع الأمبراطور في ٣٠ أيار ١٦٣٥ وظهر الأمبراطور مرة أخرى على أنه سيد ألمانيا .

كان من أولى نتائج (نوردلينجن) أن ارتمى البروتستانت في أحضان فرنسا . ومن ذلك الحين لم تعد حرب الثلاثين عام مشكلة ألمانيا بل صارت مجرد نزاع بين فرنسا والسويد من ناحية ضد النمسا وإسبانيا من ناحية أخرى ولكن على الأرض الألمانية وفي تلك الحرب لم يلقِ أحد الطرفين المتنازعين أي اهتمام للمصالح الألمانية ، فالسويد كانت تحارب من أجل الحصول على تعويض يتمثل في بوميرانيا والفرنسيون كانوا يحاربون من أجل حدود الراين .

وصار واضحاً أن استمرار الحرب لن يعود على أحد من الأطراف المتنازعة بأية مكاسب حقيقية إلى أن عقد الصلح في ڤستفاليا Westphalia عام ١٦٤٨ حيث حملت معالمه الأساسية إقرار الأوضاع في الأمبراطورية . ومن نتائج صلح ڤستفاليا على السويد أن حصلت على أسقفيات بريمن وفردين واحتفظت بالجزء الأكبر من بوميرانيا والمنطقة حتى مصب نهار الأودر بما فيها Stettin الميناء المهم على ذلك النهر . وبذلك حققت السويد السيادة في بحر البلطيق ، وهو الهدف الذي كان يسعى إليه غوستاف أدولف . كذلك أصبحت السويد عضواً في المجلس Diet الألماني وتمتلك فيه ثلاثة أصوات . وصارت السويد من الدول الأوروبية الكبرى ولكنها لفقر

مواردها لم تتمكن طويلاً من الاحتفاظ بذلك المركز .

عندما أراد بطرس الأكبر التوسع في المياه الدافئة كان بحر البلطيق أشبه ببحيرة سويدية ، إذ كانت شواطيء فنلدة Finland وإستونيا Esthonia وإنغريا Ingria وليفونيا Livonia والجزء الأكبر من يوميرانيا أملاكاً للسويد . وكانت تشارك الروسيا في مطمح تقسيم تلك الجهات كل من بولندا وبراندنبرغ والدانمارك . فبولندا كانت قد فقدت ليفونيا وإستونيا وتود استرجاعهما من السويد . بالإضافة إلى ذلك كان الملك البولندي أغسطس Augustus ـ السكسوني الأصل ـ يود قيام حرب يلتف فيها حوله كلا السكسون رعاياه الأصليون والبولنديون ـ رعاياه الجدد ـ حتى يستطيع بسط نفوذه على مملكته الجديدة (بولندا) . وعلى ذلك تعقد معاهدة بين بطرس وأغسطس (١٦٩٩) يقسم بها الملكان أملاك السويد على البلطيق . وينضم إليهما حلف ثالث هو فردريك الرابع ملك الدانمارك الذي كان يرغب في ضم دوقيتين شلزفغ وهولشتين ـ وكانت كل من إنكلترا والسويد وهولندا قد ضمنت استقلالهما من قبل ١٦٨٩ . وهكذا يتكون التحالف الثلاثي في الروسيا وبولندا والدانمارك ضد السويد .

ولكن سرعان ما يحطم تشارلس الثاني عشر ، ملك السويد (١٦٩٧ ـ ١٧١٨) ذلك التحالف ويواجه بطرس . ففي عام ١٧٠٠ تصل الأنباء إلى تشارلس بدخول الدانماركيين

(شلز فيج) وحصار أوغسطين لريجا Riga وتقدم الروس إلى أملاكه . ولكن سرعان ما انسحب فردريك الرابع من الحلف في آب من نفس العام بعد نزول القوات السويدية إلى بلاده . وفي هذا الصدام كادت الدانمارك أن تنهار لولا تدخل إنكلترا وهولندا وعقد صلح ترافندال Travendahl (٢٠ آب ١٧٠٠) الذي أعاد لدوق هولشتين استقلاله . كذلك لم يكن حظ الروس والبولنديين بأحسن من حظ الدانماركيين . فقد دفع السويديون عن Riga واضطر أغسطس إلى الانسحاب ، ثم تفرغت السويد للروسيا واستطاعت هزيمة قوات بطرس هزيمة ساحقة في نارفا Narwa . ويرجع ذلك إلى عدم تدريب القوات الروسية تدريباً كافياً وعدم ثقتهم في ضباطهم الأجانب . ومع ذلك فقد كانت نتائج المعركة في غير صالح السويد أكثر منها في صالحها . فالنصر قد أثمل الملك السويدي الذي ظن نفسه لا يقهر ، واحتقر عدوه واستهان به ، بينما كان بطرس قد اكتسب خبرة ولم يفقد سوى جيش كان من اليسير بالنسبة لطاغية مثله أن يعيد تكوينه .

كان من الممكن بالنسبة لتشارلس ـ بعد أن هزم كل أعدائه ـ إنها الحرب والعودة إلى بلاده ، ولكنه طمع في مزيد من الانتصارات كان عليه أن يختار الميدان ، وأن يقرر أيهما يهاجم أولاً الروسيا أم بولندا . وكان مصير أوروبا في الواقع يتوقف على ذلك القرار . وقد اختار تشارلس بولندا أولاً بعكس ما أشار به مستشاروه ، وبذلك دل على نقص في فهمه للأمور

السياسية ، ولكن تشارلس كان يهدف بذلك إلى خلع أغسطس من عرش بولندا ، يحدوه إلى ذلك دافع الانتقام من الحنكة السياسية . وهكذا يغزو تشارلس بولندا ويحتل وارسو ١٧٠٢ .

وقد كانت الأحوال داخل بولندا سيئة . فالملك كان حقيقة في حرب ولكن شعب بولندا ونبلاءها لم يستشاروا في شأن الحرب ولذا لم لم يشتركوا فيها . وكان من العبث أن يطلب أغسطس المساعدة من دول وسط أوروبا ضد السويد ، فذلك سوف يؤدي إلى جعل تشارلس يتحالف مع لويس الرابع عشر . وبذا لم يعد اما أغسطس سوى تجديد محالفته مع بطرس ، وبإيعاز من تشارلس تقرر وارسو عزل أغسطس من

العرش عام ١٧٠٤ وتكتسح جيوش السويد سكسونيا في نفس الوقت . وحاول أغسطس مساومة تشارلس واقتسام بولندا معه نظير انسحابه من سكسونيا ولكن تشارلس صمم على اعتزال أغسطس عرش بولندا لصالح Leczinsky الذي كان قد انتخب ملكاً في وارسو بتأييد من السويديين وانسحابه من كل التحالفات المعقودة ضد تشارلس . ووافق هذا الأخير على ذلك .

وهكذا يعسكر تشارلس في ألترانشتات Altranstadt في تموز ١٧٠٧ وهو في قمة مجده ، ولم يكن قد جاوز الخامسة والعشرين من عمره ، وتتجه أنظار أوروبا كلها إلى معسكره . فقوات لويس الرابع عشر في ذلك الوقت كانت قد توغلت في

ألمانيا . وبذلك صار يخشى وصولها إلى القوات السويدية والتعاون معها ، وبذلك تصير ألمانيا تحت رحمتهم . وحاول لويس الرابع عشر بالفعل الاتصال بتشارلس وإقناعه بأن يلعب دور غوستاف أدولف في عهد ريشيلييه . ويتنبه التحالف الأعظم إلى الخطر الداهم ، ويتصل كل من الأمبراطور وإنكلترا بمعسكر تشارلس . ولكن الخطر كان أقل مما كان يتوقع التحالف الأعظم . فتشارلس الثاني عشر كان بروتستنتياً مخلصاً ، ولم يكن يكنّ أي عطف على مطامع لويس الشخصية . من ناحية أخرى ، كان هناك خطر ماثل أمام تشارلس عليه أن يواجهه وهو الخطر الروسي .

ولكن كما تألف نجم تشارلس بسرعة أفل بسرعة . فحملات تشارلس على بولندا وسكسونيا لم تعط بطرس فرصة لينهض من كبوة هزائمه فقط ، بل ساعدته إلى حد كبير أيضاً . وكانت النتيجة الوحيدة لإذلال أغسطس ، هي حصول الروسيا على نصيب من الأملاك السويدية على البلطيق ، أكبر بكثير في الواقع عما كان يحلم به بطرس . وبدلاً من أن يسير تشارلس إلى سواحل البلطيق الشرقية ، يتبع مع بطرس نفس السياسة التي اتبعها مع فردريك وأغسطس بتحطيمهما في كوبنهاغن وسكسونيا ، ويحاول تحطيمه في عقر داره . بذلك بدأ تشارلس في زحفه نحو موسكو ١٧٠٨ ، وكلنه سرعان ما وجد أن الروسيا بلاداً تختلف تماماً عن الدانمارك وبولندا وسكسونيا . وظل الروس ينسحبون ويراقبون العدو دون

الاشتباك معه وأمعن في استدراجه داخل الروسيا حتى قاست الجيوش السويدية من شدة سوء المناخ وقلة الإمدادات وفعل المفاجأة والحرب الخاطفة التي مارسها الروس .

وفي أيلول كان تشارلس لا يزال على بعد ثلاثمائة ميل من موسكو . ولم يتريث تشارلس حتى وصول المدد ، بل واصل التقدم جنوباً إلى أوكرانيا معتمداً على مساعدات القوزاق له ، وهؤلاء كانوا يمنون أنفسهم بالتحرر من النير الروسي وإنشاء أمبراطورية قوزاقية . كذلك كان تشارلس يعتمد على مدد يصله من أحد قواده ، ولكن مساعدات القوزاق كانت هزيلة كما أن بطرس شتت المدد السويدي قبل وصوله .

وفي صيف عام ١٧٠٨ دخل الجيش السويدي أراضي بيلورسيا وتوجه نحو سمولينسك . وقرر المجلس الحربي للجيش الروسي إنهاك العدو في البداية وتهيئة الظروف لتحطيمه تحطيماً قاضياً . وأخذ الروس ينسحبون ببطء ويلحقون عدداً من الهزائم ببعض فصائل السويديين . وبدأ الغزاة الذين أغاظهم الفشل ينهبون السكان ويحرقون المدن والقرى . حتى كتب شاهد عيان يقول : « السويديون يعذبون الفلاحون ويشنقونهم ويحرقون بيوتهم بشكل لم يسبق له مثيل » . إلا أن ذلك لم يؤد إلا إلى زيادة الحقد على العدد . فنظم الفلاحون وسكان المدن فصائل الأنصار في كل مكان .

وقتلوا الفلاحين السويـديين وأسروا الجنـود وقدمـوهم للقادة العسكريين الروس .

وفي الثامن والعشرين من أيلول عام ١٧٠٨ جرت معركة قـرب قريـة ليسنـايـا (إلى جنـوبي غـربي سمـولينسـك في بيلوروسيا) . وحطمت القوات الروسية برئاسة بطرس الأكبر فيلق الجنرال السويدي ليفينفاويت الذي سار من ريغا ، مع قافلة هائلة من المؤن ، لنجدة تشارلس الثاني عشر . وبعث الانتصار على العدو القوي في الجنود الروس الثقة بمقدرتهم على ضرب السويديين بعدد أقـل من القوات . وقـد أصاب بطرس عندما سمى معركة ليسنايا « بأم معركة يولتافا » .

وأجبرت مقاومة الجيش الروسي العنيـدة ونضال فصـائل الأنصـار من الفـلاحين البيلوروسيين والـروس ضـد الغـزاة تشـارلس الثاني عشـر على الكف عن متـابعـة الحملة على موسكو .

وتحرك الجيش السويدي نحو أوركانيا . وكان تشارلس الثاني عشر ينـوي جر تـركيا وخـان القرم لمحـاربة الـروسيا والحصول على حق التصرف بجيش غيثمان أوكرانيـا مازيبـا الذي كان قد خان بلاده منذ وقت بعيد وعقد علاقات مع ملك السـويد . إلا أن الشعب الأوكـراني والجيش لم يسيرا وراء الخائن .

ولم يأت مع مازيبا إلى المعسكر السويدي غير مجموعة صغيرة من القوزاق الذين خدعهم . والتحقت قوات أوكرانيا

البالغ عددها ٤٠ ألفا بالجيش الروسي وكافحت العدو ببسالة .

وفي شتاء ١٧٠٨ ـ ١٧٠٩ قامت في أوكرانيا موجة نضال شعبي شامل ضد الغزاة . وسد الروس الطريق في وجه السويديين إلى موسكو وطرق الانسحاب إلى بولونيا . وأصبح جيش تشارلس الثاني عشر في وضع حرج ، فانخفضت معنويات أفراده .

معركة يولتافا:

حاصر السويديون يولتافا في ربيع ١٧٠٩ . وأراد تشارلس الثاني عشر تقريب لحظة الصراع الحاسم باحتلاله مدينة يولتافا ، ذلك لأن قوى جيشه كانت تذوب سريعاً يوماً بعد يوم . ولكي يرفع معنويات الجنود أعلن تشارلس الثاني عشر بكبرياء قبل الهجوم على قلعة يولتافا أن الروس سيستسلمون عند الطلقة الأولى . إلا أن كل هذه الحسابات خابت .

وقامت حامية يولتافا الصغيرة مع سكان المدينة بصد هجمات العدو طوال شهرين وألحقوا به خسائر فادحة .

ووجد بطرس الأول قوات الجيش الروسي الأساسية وعددها ٤٠ ألف مقاتل مع مدفعية قوية لنجوت يولتافا المحاصرة . وكان يقود الجيش القواد المحنكون الذين حركتهم الحرب : ب.ب شيريميثيف و أ.د مينشيكوف و ن.إ

ريبتنين وغيرهم . وأخذ بطرس على عاتقه أمر قيادة العمليات الحربية عامة .

وفي السابع والعشرين من حزيران عام ١٧٠٩ بدأت معركة بولتافا الشهيرة . وتلي أمر بطرس الأول قبل المعركة : « أيها المحاربون ! لقد حلت الساعة التي ستقرر مصير الوطن . فلا تظنوا أنكم تقاتلون من أجل بطرس ، بل من أجل الدولة التي أوكلت إلى بطرس ، من أجل شعبكم ، من أجل الوطن . . . » .

وفي الساعة الثالثة صباحاً بدأت فصائل مقدمة الجيش المعركة . وتقاربت صفوف الجنود السويديين والروس ببطء ، حتى صارت على مسافة طلقة مدفع .

وأسرع خط أفواج الروس الأول لملاقاة العدو . وحصدت نيران البطاريات الروسية صفوف السويديين . ودوت الصليات فوق ساحة المعركة وانتشر دخان البارود وأزيز الرصاص وتفجرت قذائف المدافع . وتحول القتال إلى معركة بالسلاح الأبيض ، وأشهر الروس الحراب ، فارتجف السويديون .

وعندما رأى تشارلس الثاني عشر ، المجروح برجله ، ذلك أمر بأن ينقلوه على كرسي متحرك إلى صفوف الجنود المتقاتلين . إلا أن الكرسي حطمته قذيفة روسية . ووقع تشارلس على الأرض وكاد يؤخذ أسيراً .

وبـدأ الفرسـان الروس يلتفـون حول جنـاحي العدو . وهرب الجنود السويديون مذعورين وسلم بعضهم نفسه للأسر بعد أن ألقوا سلاحهم . ولم تجد نداءات تشارلس الثاني عشر لمحاربيه القدامى : « أيها السويديون ! أيها السويديون » ولم يكن من السهل وضع الملك على ظهر الحصان وإنقاذه من الموت أو الأسر .

وفقد السويديون في معركة يولتافا أكثر من ٩ آلاف قتيل وحـوالي ثلاثـة آلاف أسيـر ومن ضمنهم جميـع الجنـرالات الممتازين . أما خسـائر الـروس من القتلى فكانت أقـل من خسائر السويديين بسبع مرات . وهربت بقايا الجيش السويدي في ذعر . وترك الملك السويدي جنوده تلعب بهم الأقدار ، واختبأ في تركيا مع الخائن مازيبا . وفي التاسع والعشرين من حزيران لحقت أفواج مينشيكوف بالسويديين عند بيريغولوتشنا على نهـر الذيبـر . واستسلم السـويـديـون الـذين تحـطمت معنوياتهم نهائياً . فاستولى الروس بلا قتال على حوالي ١٧ ألف أسير و ٢٨ مدفعاً و ١٢٨ راية . وأدركت النهاية المخزية تشارلس الثاني عشر « الذي لا يمكن التغلب عليه » .

عكس تحطيم السويديين قرب يولتافا فشل خططهم . بـالمقابـل تعتبر معـركة يـولتافـا في نظر الـروس من أسـطع الصفحات المليئة بالعبر في تاريخ نضال شعوب روسيا الطويل الأمد ضد الغزاة .

حققت معركة يولتافا للروسيا الزعامة على الدول المجاورة والحصول على منفذ على بحر البلطيق . كما رفعت من شأن بطرس الأكبر في المجال الدولي وفي الداخل . وذلك أدى إلى الإسراع بالاتحاد التام مع أوكرانيا الشرقية ، وحل دولة القوقاز الذين ألحقت قواتهم بخدمة بطرس لتحارب معه في أي مكان. واستخدم بطرس الأكبر العمال هناك لبناء الطرق وشق القنوات وفرض عليهم العمل بالسخرة على نطاق واسع . كما منح مساحات كبيرة من أراضيهم إلى النبلاء الروس ليحلو محل قادة القوقاز . وبعد يولتافا لم تستمر الحرب في الجنوب طويلاً ، وبذا شاركت الروسيا في الشؤون الأوروبية وسياستها ، وتمكن بطرس من تحقيق الحلم الروسي القديم بالحصول على منفذ إلى البحر ، وذلك بعد استيلائه على الأملاك السويدية في ليفونيا .

بهزيمة السويد في يولتافا يعود الحلف الثلاثي بين بطرس الأكبر وأغسطس وفردريك إلى الظهور . أما أغسطس فقد تحلل من اتفاقية الترانشتات واستعاد التاج البولندي ، كما نقض فردريك معاهدة ترافندال ، بل وحاول غزو السويد نفسها .

ونلحظ في هذا التحالف أن بولندا والدانمارك لم يهتما إلا بتوزيع الأسلاب على حساب السويد ، ولم يقطنا إلى الخطر الروسي الداهم بعد زوال قوة تشارلس . ففي ذلك الحلف حصل بطرس على نصيب الأسد ، ووطد مركزه في

البلطيق والتي نقل إليها عاصمته عـام ١٧١٣ ، التي سميت باسمه سان بطرسبورغ ، كما أخذ في بناء أسطول له في ذلك البحر استطاع به أن يمارس نفوذاً كبيراً على كل المنطقة .

سير الحرب في أعوام ١٧١٠ ـ ١٧٢١ صلح نيشتادت :

كما أشرنا بعد معركة بولتافا جددت الدانمارك وأغسطس الثاني ، الذي تبوأ عرش بولونيا ثانية ، التحالف مع روسيا ، وانضمت إليه بروسيا . إلا أن نشاط حلفاء روسيا كان فاتراً ، ولم يستخدم هؤلاء الحلفاء كل إمكانياتهم لإنهاء الحرب بأسرع وقت . واحتل الجيش الروسي ريفا وفيبورغ وريغيل (تالين) في حوض البلطيق .

من جهة أخرى نجح ملك السويـد ، تشارلس الثـاني عشر ، أثناء وجوده في تركيا في حمل السلطان العثماني على إعلان الحرب على روسيا . فقد وجد في ذلك فرصة لاسترداد ما خسرته بلاده في حروبها مع روسيا .

في أواخر عام ١٧١٠ بدأت المعارك بين الدولة العثمانية وبطرس الأكبر وكانت شديدة وعنيفة . فحاصرت قوات الجيش التركي وتتر القرم المتفوقة الروس في المعسكر المحصن على نهر بروت . كمـا تمكن القائـد التركي (بلطجي بـاشا) من حصـر الجيش الروسي ووشـك القبض على قيصـر الـروس بطرس الأكبر ولكنه نجا بأعجوبة من الأسر بما قدمته زوجته (كاترين) من الـرشوة إلى الخـائن (بلطجي باشـا) فأفلت

بطرس وجيشه من براثن الفناء . ولما كان الجيش الروسي يعاني نقصاً في المواد الغذائية والعلف ، اضطر بطرس الأول على عقد صلح مع تركيا والتنازل لها عن آزوف عام ١٧١١ .

ويعتبر عقد الروس لهذه المعاهدة على ما نالهم فيها من الخسائر الطفيفة من أكبر سعودهم ، إذ لو لم تتقيد بها الترك وواصلت عليهم الحرب ، لقضت لا محالة على دولتهم وهي في إبان نهضتها .

وبعد مضي خمسة عشر عاماً على معاهدة « كدلـوتز » أراد « قومرجي علي » الصدر الأعظم أن يمحوا العار الـذي لحق الدولة في هذه المعاهدة باسترداد بلاد المجر والمورة . وكانت الفرصة سانحة له ، إذ كانت الدولة قد انتصرت على بطرس الأكبر كما أسلفنا ، وكانت الأمبراطورية النمساوية قد أنهكتها الحروب الأوروبية ، ولم يكن للبنادقة من القواد مثل « مروسيني » وأمثاله حتى يقودها إلى الظفر ، فضلاً عن أن بلاد المورة نفسها عندما غزيت لم تظهر أي مقاومة جـدّية ، فكانت النتيجة أن تمكن قومرجي بزحف واحد من استرجاع بلاد المورة سنة ١٧١٥ م .

على أنه لم يتم للصدر الأعظم ما أراد في المجر ، فإنه هزم عند « بيتروردن » هزيمة منكرة على يد الأمير « يوجين » في آب ١٧١٦ . وقتل الصدر الأعظم في هذه الموقعة فاضطر الباب العالي إلى عقد صلح بساروتز عام ١٧١٨ م . وكان أهم

شروط الصلح إن أبقت الدولة النمساوية مقاطعة تمسوار وبلغراد وبقي معها المورة .

وبعد معاهدة بساروتز لم يفكر الترك في منازلة بطرس الأكبر ، بل وجهوا هممهم نحو فارس إذ كانت نار الثورة متأججة فيها . ففي عام (١٧٢٢ - ١٧٢٣) لجأ « الشاه طهماسب » إلى روسيا لتساعده على منازع له في الملك ، فانتزع الباب العالي هذه الفرصة واستولى على بعض جهات فارس ، وساعده على ذلك خروج الأرمن على الفرس .

وفي عام ١٧٢٤ عقدت معاهدة بين الترك وبطرس الأكبر على أن تستولي الروسيا على الأقاليم المحيطة ببحر قزوين وتستولي الترك على إقليمي « جورجيا » وأذربيجان .

أما ملك السويد ، تشارلس الثاني عشر ، فقد بقي في تركيا حتى عام ١٧١٤ حيث رجع إلى بلاده ليجدها عرضة لمطامع بطرس الأول الذي استولى على ليفونيا وبدأ يتوسع في جهات البلطيق على حساب خليفته بولندا . هذه الأطماع الروسية أطالت من سير الحرب . وفي السنوات التالية ألحق الروس هزائم كبيرة بالسويديين في البر والبحر ، واحتلوا كل فنلندة التي كانت عندئذٍ واقعة ضمن السويد . ولعبت أعمال الأسطول الروسي الناجحة في بحر البلطيق الدور الحاسم في تقرير مصير الحرب . وكتب انتصار الروس على عمارات السفن السويدية عند رأس غانفوت في عام ١٧١٤ وعند جزيرة غرينفام عام ١٧٢٠ في تاريخ الأسطول الحربي الروسي

بأحرف من ذهب . وقاتل البحارة الروس السويديين بنفس البسالة والمهارة اللتين قاتل بهما الروس قرب ليسنايا وبولتافا .

واختبأ الأسطول السويدي في مرافئه ولم يجرؤ على الدخول في معركة مكشوفة . واستغل البحارة الروس هذه الفرصة فقاموا بعده إنزالات جريئة على أراضي السويد نفسها .

ولم تفد السسودبين مظاهرات عمارة السفن الإنكليزية في بحر البلطيق التي حاولت تهديد الروسيا بإفناء أسطولها .

واقتنعت الأوساط الحاكمة في السويد بعدم جدوى متابعة المقاومة وبدأت مفاوضات الصلح . وفي عام ١٧٢١ عقد صلح نيشتادت الذي تنازلت الروسيا بموجبه للسويديين عن فنلندة (ماعدا فيبورغ) ، وتنازلت السويد عن شرق البلطيق مع أقاليم ليفلانديا وإيستلانديا وإينفير مالانديا (الواقعة على مجرى نهر نيفا) . وأبقت ضمن الدولة الروسية الأراضي التي يسكنها اللاتفيون والإستونيون .

وبعد أن فتحت روسيا « نافذة على أوروبا » على حد قول الشاعر الروسي الكسندر بوشكين ، حصلت على إمكانية توسيع الصلات الإقتصادية والثقافية مع بلدان الغرب . وضمنت شعوب روسيا بعملها في ألمانيفا كتوارت وأحواض بناء السفن ومكافحتها البطولية للغزاة السويديين الإنتصار في الحرب الدموية الطاحنة . وثم وضع أساس لوجود الدولة

الروسية بصورة مستقلة وإنجاز الإصلاحات التي بدأت القيام بها .

ووضع الإنتصار في الحرب الشمالية الروسية في صف دول أوروبا الكبرى . ففي عام ١٧٢١ أعلنت الروسيا أمبراطورية واتخذ الكبير لقب الأمبراطور .

ماذا كتبت (مجلة بطرس الكبير) عن معركة يولتافا؟ :

وهكذا اتخذ جيشنا ترتيب القتال ، وتقررت مهاجمة العدو ؛ وبعد ذلك . . . هجمنا على فيلق العدو الرئيسي الذي لم ينتظر في موقفه بل توجه نحونا . وهكذا بدأت المعركة الرئيسية في الساعة التاسعة صباحاً ، وفي البداية بين جناحنا الشمالي وجناح العدو اليميني ، ثم في كلٍ الجبهة للجيشين حيث اشتد إطلاق النار بين الجانبين اشتداداً ، إلا أن ذلك لم يستمر أكثر من ساعتين ، لأن السادة السويديين الذين لا يمكن التغلب عليهم سرعان ما انقلبوا عائدين على أعقابهم ، كما أن قواتنا الباسلة طاردت جيش الأعداء كله (ومن عجب أننا لم نتكبد إلا بخسائر قليلة) . فصدت الفرسان والمشاة بحيث لم تتوقف القوات السويدية بعد ذلك ولا مرة واحدة ، ومع ذلك كلنت سيوفنا وحرابنا تطعنها باستمرار ، وطاردناها حتى الغابة التي كان السويديون قد اصطفوا فيها قبل المعركة ، وأثناء ذلك استسلم في البداية اللواء شتاكلبيرغ ثم اللواء غاميلتون وكذلك المشير رينشيلدوامير فيرتينبيرغ مع كثير من العقداء الآخرين

وضباط الأفواج والسرايا وبضعة آلاف من الجنود الـذين كان معظمهم بالأسلحة والأحصنة وأسروا جميعاً .

ووصل عدد جثث القتلى من الأعداء في ساحة المعركة وقرب تحصينات الروس حوالي ٩٢٣٤ قتيلاً ما عـدا أولئك الذين قتلوا في الغابات والحقول والذين ماتوا من جراحهم ولم يمكن عدهم . وأثناء تلك المعركة أمر الملك السويدي بأن يحملوه جريحاً على الحمالة التي عثر عليها بعد ذلك وكـان أحد عارضيها مكسوراً بقذيفة مدفع . . .

وهكـذا تم بعطف الآله الأعلى إحـراز النصر الكـامل بالقيلل من الجهد والنـزر من الدم . وتم إحـراز النصر على العدو الفخور بفضل القيصر نفسه والقادة الشجعان المحنكين وبسالة الضباط والجنود . وذلك أن القيصر لم يبخل بحياته من أجل الناس والوطن ، فتصرف كما يتصرف القائد الهمام الذي اخترقت قبعته طلقة وطلقة أخرى وجدت في سراج جواده .

وعلى هذا ينبغي أن تعرفوا أن الخط الأمامي فقط من مشاتنا اشتبـك في القتال مـع العدو ، أمـا الخط الآخر فلم يخض المعركة . . .

فتوحات بطرس في بلاد العجم:

لمـا كانت بـلاد العجم واقعة مـوقعاً قـريباً من البـلاد الروسية بعث بطرس بجمعية تجارية إلى مدينة شماكا بقصد إتصال التجارة بين هذه المدينـة وبلاده لكثـرة غناهـا واتساع

تجارتها . وحيث كانت بلاد العجم مرتبكة بـالعصيان بسبب خروج الأفغان والطاغية محمود رئيس العصاة ، وبذلك كـان النظام مضطرباً ببلاد العجم والفتن قائمة في كـل ناحيـة من البلاد والدماء تسفك . وأضحت البلاد بحالة فوضى . وأخيراً هجم جمـاعـة اللزجيـة من العجم على شمـاكـا على حين غفلة ونهبوها وذبحوا جميع من بها من الروسيين ممن كـانوا يبيعـون ويشترون تحت حمـاية الشـاه حسين وسلبـوا جميـع أموالهم ومحاصيلهم التي بلغت قيمتها نحو أربعة ملايين ريال روسي . عنـدها أرسـل بطرس إلى الشـاه حسين والـطاغيـة محمود ، وهما يتنازعان التاج العجمي ، أن يعوض عليه بدلاً عن ذلك بما يرضي الأمة الروسية إلا أن الشاه حسين اعتذر بعدم قدرته على إنفاذ طلبه وأما محمود فقد حركه كبره وظن بنفسه الغلبة على الروس فامتنع عن الإجابة . لكن بطرس لجأ إلى الانتقام لنفسه وعزم على فتح الحرب على الشاه حسين وعلى الـطاغية محمـود . وهذا الأخيـر كـان يجتهـد ويسعى بفتوحاته ببلاد العجم . ولما بلغ الشاه حسين الروسيا يتجهز لدخول بلاد الخزر لأجل أن ينتقم لقتل رعاياه الذين ذبحوا في مدينة شماكا أرسل إليه سفيراً من الأرمن يستعطفه ويسأله أن يكون حربه ببلاد العجم ليس لأجل الانتقام من البلاد بل من الطاغية محمود وإنقاذ البلاد منه .

وكان مطمح بطرس منذ زمن مديد الاستيلاء على بحر الخزر وأن يضع فيه أسطولاً روسياً ويجعل تجارة بلاد العجم

وبلاد الهند تمر ببلاده وكان قد سير عمقه واختبر سواحله ورسم خارطات به . ثم سافر إلى بلاد العجم في ٥ أيار سنة ١٧٢٢ مصطحباً معه زوجته كاترينا في هذه السياحة ونـزل في نهر (الأتل) حتى وصل إلى مدينة إستراخان ومن هناك أسرع في عمل الخلجان وكـان الغرض منهـا وصل بحـر الخزر ببحـر البلطيق والبحر الأبيض ، فتم ذلك على عهده وبقي منه جزءٌ انتهى في زحف حفيده . وفيما كان بطرس يدير هذه الأمور وصلت إليه جيوشاً المعدة لهذه الغزوة وهي ٢٢ ألفاً من المشاة و ٩ آلاف من الخيالة و ١٥ ألفـاً من القوزاف و٣ آلاف من الملاحين لهم خبرة بالحركـات العسكريـة وقت الهجوم مـع العساكر البرية . ولما اجتاز الخيالة الصحاري وجب أن يعبروا مضيق جبل قوقاس أي جبال الشراكسة الـذين يقدر عـددهم بثلاثماية شخص . غير أن هؤلاء الشراكسة لم يوفقوا في وقف زحف الجيش الروسي فضلاً عن أن عدم انتظام الحكومة ببلاد العجم يسهل المرور من هناك .

وقد سار بطرس في نهر الأتل المذكور من جهة جنوب مدينة إستراخان وقطع نحو ١٠٠ فرسخ حتى وصل إلى مدينة أندريهوف الصغيرة ومن هذه الجهة توغل في السير براً في بلاد داغستان ونشر بها إعلانات باللغة الفارسية والتركية وسلك بها مسالك الأدب مراعاة لخاطر الدولة العثمـانية حيث كـان من رعاياها غير الشركس المجاورين لتلك الجهة جملة من الحكام ذوي القوة والاعتبار دخلوا منذ قريب تحت حمايتها .

ومن جملة أولئك الحكام حاكم ذو شوكة اسمه (محمود أوتمنج) فزين له سلطانه وعظمته احتقار الروسيين فهاجمهم إلا أنه هزم شر هزيمة أمامهم فعانوا في بلاده حتى كادت تصير قاعاً صفصفاً ، وبعد أيام قليلة أي ١٤ أيلول ١٧٢٢ وصل بطرس إلى مدينة دربند ويسميها العجم (دمرقبو) أي باب الحديد لأن لها باباً متيناً من الحديد بجهتها الجنوبية وهي مدينة طويلة ضيقة متصلة من أحد طرفيها بشعبة من جبل قوقاس صعبة المرتقى ومن الطرف الآخر متصلة بالبحر . وتعد أسوار هذه المدينة من عجائب الأقدميين فإن ارتفاعها أربعون قدماً وعرضها ست أقدام محصنة بأبراج مرتفعة ومربعة الشكل يبعد البرج عن الآخر ٥٠ قدماً ويظهر للناظر أن هذه الأبينة كأنها قطعة واحدة إلى غير ذلك من التركيب العجيب الصنعة وامتداد ذلك السور من شواطيء بحر الخرز إلى شواطيء البحر الأسود .

فحين قربت الجيوش الروسية من هذه المدينة لم يرد حاكمها الموافقة أصلاً إما لكونه لم يكن في طاقته الذود عنها وإما لكونه رأى أن حماية الأمبراطور بطرس الأكبر ، أولى من حماية الطاغية محمود فأحضر مفاتيح المدينة والقصر الذي يسكنه وكانت من الفضة وسلمها لجيوش الروسيين فدخلتها ونصبت أعلامها على شاطيء البحر . وأراد الطاغية محمود الذي كان قد تملك قسماً كبيراً من بلاد العجم أن يعارض الأمبراطور بطرس ويمنع دخوله مدينة دربند فبادر بنفسه بعد

أن هيج التتار المجاورين لتلك الجهة فوجدها قد سلمت ودخلها بطرس كما تقدم وبقي فيها وهناك بلغه أن السفن التي كانت تحمل المؤن والذخائر قد غرقت عند إستراخان فتكدر ولم يمكنه بعد ذلك أن يتقدم في بلاد العجم فعاد إلى موسكو لقضاء فصل الشتاء في الروسيا . وبقيت دولة العجم منقسمة بين الشاه حسين والطاغية محمود فكان الأول يسعى في مراضاة بطرس والثاني يخافه ولخوفه منه حرض الدولة العثمانية على محاربته وكاد يفوز بالنجاح في باديء الأمر إلا أن الدولة العثمانية بعد المخابرات مع النمسا وفرنسا وجدت نفسها مضطرة إلى منع مثل هذه الحرب خصوصاً لأنها تعرف أن من حقوقها الذود عن الشاه حسين وردع الطاغية محمود الذي خرج معتدياً على البلاد والسلطنة الفارسية ودخل كثير من أهالي البلاد تحت حماية الروسيا عندما رأوا الطاغية يتقدم ويخرب في نواحي (دربند) . وبينما كان الشاه حسين الصفوي قد أرسل إلى بطرس سفيراً من قبله يطلب منه الإمداد والمساعدة هجم الطاغية محمود على أصفهان وقبض على صاحبها وهو ابن الشاه المذكور واسمه طهماسب ففر منه بالحيلة وجيش بعض جيوش للمقاتلة بها ولم تغتر همته بل أسرع إلى طلب حماية الأمبراطور بطرس وأرسل إلى السفير الذي كان بعثه أبوه إليه يخبره من قبله بنفس الغاية التي كان أبوه بعثه لأجلها .

ولما وصل السفير إلى مدينة إستراخان علم أن الجنرال

مانوفكين الروسي يستعد للسفر بجيوش جديدة لمساعدة الجيوش المقيمة في داغستان فأعطاه السفير كتاباً لأهالي مدينة باكو الواقعة عند بحر الخزر يعلمهم عن لسان سيدهم أن يسلموا أنفسهم لأمبراطور الروسيا دون تردد . ثم سافر السفير المذكور إلى بطرسبورغ وسار مانوفكين إلى باكو فحاصرها واستولى عليها وبعث بخبر استيلائه عليها إلى موسكو فصادف وصول السفير يوم وصول هذا الخبر ، فاجتمع ببطرس ، وأبلغه رسالة سيده وولده طهماسب فوعده بمساعدتهما على الطاغية محمود وأنه سيذهب بنفسه لردعه فوعده الشاه بأن يتنازل له عن مدينة باكو ودربند وإقليم جيلان ومازندران المتصل بجيلان هو عين بلاد مرو وإقليم إسترباذ متصل بمازندران وهذه الأقاليم الثلاثة هي التي لقدماء ملوك العجم وأذربيجان . ولذلك رأى بطرس أنه قد أصبح بوقت قريب سيداً على ممالك متسعة دخلت مجدداً في حوزته بمساعدة الصدف . وأما طهماسب فبقي رحالاً يتنقل من جهة إلى جهة بجيوشه يقتفي أثر الطاغية محمود والتزم أن يعطي الدولة العثمانية قسماً من بلاده فضلاً عما أعطاه لروسيا . لذلك اتفق كل من بطرس الأكبر والسلطان أحمد الثالث على أن الدولة الروسية تأخذ من بلاد العجم الأقاليم التي أسلفنا ذكرها والدولة العثمانية تأخذ إقليم كسبان وقبرص وإيروان زيادة عما كانت تسعى بأخذه والتغلب عليه من الطاغية محمود . وبذلك قسمت مملكة العجم وضعفت قوتها وبالاختصار أن المصائب

قد حلّت ببلاد العجم مدة طويلة .

ويتحمل الشاه حسين مسؤولية ذلك لأن الجبن تحكم بإرادته كما الخوف من ضياع التاج وانتقاله إلى الطاغية محمود . ويقال أيضاً أن محموداً هذا اختل عقله بعد ذلك . فبهذه السياسة تصرف شخصان أحدهما مغفل والآخر مجنون في أمر أهالي بلاد العجم . كما يقال أن جنون محمود قاده لقتل جميع أولاده وأولاد الشاه وأولاد أخوته وكان عددهم مائة نفس ثم بطش خسر وابن أخ الطاغية به فقتله وهو أشبه بعمه قساوة وطغياناً . ويمكن القول أن بطرس الأول قبل موته أنهى حروبه في العجم وضم الأقاليم الثلاثة .

٤ ـ الحرب بين بطرس والأسوجيين :

أدى تطرف كارلوس الحادي عشر والد كارلوس الثاني عشر إلى وقوع فتن وإرباكات في بلاده الأسوجية من إقليم إنغريا إلى مدينة درسدن . ونتج عن هذه السياسة كثيراً من الخراب والدمار . وكان حكام بولونيا قد تنازلوا عن معظم إقليم ليفونيا وعن كل إقليم إستونيا لكارلوس بشرط أن يبقى على المزايا والعادات القائمة فيهما وألا يحدث أدنى تغيير . غير أن كارلوس لم يراع هذا الشرط مما أغاظ سكان الإقليمين المذكورين ، وانتخبوا أحد ملتزمي ليفونيا واسمه (بطقول) ليذهب إلى كارلوس ملتمساً منه المحافظة على المعاهدة . سار بطقول وبرفقته ستة من وكلاء هذا الإقليم إلى بلاد

أسـوج ، وذلـك سنـة ١٦٩٢ ، ودخلوا على الملك وبثـوا شكـواهم . فعـوض أن يصغي الملك إليهم ويستمـع إلى شكواهم عاملهم بالقسوة وقبض على رفاق بطقـول ووضعهم في السجن . لكن بطقول تمكن بنفسه من الخلاص وفرّ هارباً إلى بلاد السويس ومكث مدة إلى أن بلغه أن أغسطس منتخب ساكس وعدّ إذا تـولى مملكة بـولونيـا ردّ ما سلب من هـذه المملكة . وعندما تولى أغسطس المملكة سار إليه بطقول إلى درسدن وعرض عليهِ أمر استرجاع إقليم ليفونيا وأن ذلك على جانب عظيم من السهولة وأن ما من مشقة كبيرة بالانتقام من ملك لا يزيد عمره على ١٧ سنة وهو كارلوس الثاني عشر الذي ملك مجدداً بعد أبيه المتوفي . وسمع بطقول أيضاً وهو في درسدن أن في نية بطرس الأكبر أن يتغلب على إنغريا وكاريلية وهما إقليمان اغتصبهما الأسوجيون أيام الدولة الديمتريـوسية وبقيا بيد حكومة الأسوج إلى أيامه . عندها سافر بطقول من درسدن إلى موسكو ليحرض بطرس فصادف نجـاحاً عـظيماً فأنزله بطرس منزلة القواد العظام وأرسله بحملة إلى محاصرة مدينة ريفا قاعدة إقليم ليفونيا . كما تعاهد بطرس وأغسطس ملك بولونيا وفردريـك الرابـع ملك الدانمـارك على محاربـة كارلوس الثاني عشر الصغيـر الذي كـان يبدو غيـر قادر على الثبات والدفاع .

وفي أوائـل الشتاء بعث بـطرس الأكبر بستين ألفـاً من العساكر إلى جهة إنغريا لكن لم يكن بينهم من العارفين بفنون

الحرب المجربين على القتال إلا اثنا عشر ألفاً فقط وهم الذين كان قد باشر تعليمهم بنفسه والباقون كانوا من العساكر غير المنظمة من القوزاق والتتار والشراكسة وكان مع هذا الجيش ٤٥ مدفعاً . وحاصر بطرس بهذا العدد مدينة نروا وهي واقعة في إقليم إنغريا ولها ميناء يسهل الدخول منه ويتراءى للناظر أنها تؤخذ بوقت قصير .

أما كارلوس الثاني عشر كان وقتها لا يبلغ الثامنة عشرة إلا أنه كان شجاعاً بالحروب صارفاً كل همه إليها . ولما رأى أن مركزه في حالة خطر وأن أعداءه تحزبوا عليه أسرع إلى بلاد الدانمارك فغزاها ودخلها بمدة لا تزيد عن الشهر والنصف ثم أرسل الإمدادات إلى مدينة ريفاحيث كان بطقول ورفع الحصار عنها وأجلى الأعداء إلى مكان بعيد وسافر هو بنفسه إلى مدينة نروا حيث كانت عساكر الروس تحاصر المدينة وقد أشرفت على التسليم وصادف أن بطرس قبل وصول كارلوس أقام الحصار على المدينة بقيادة الأمير كرواي ، وهو فنلندي الأصل دخل خدمة القيصر منذ مدة قصيرة ، والأمير دلفروكي . في هذه الأثناء وقعت المنافسة بين كرواي ودلفروكي بما أفض إلى التناحر والتقهقر .

وأبحر كارلوس في شهر تشرين الأول بتسعة آلاف مقاتل فقط وسار إلى مدينة رويل حيث كانت طائفة من الروس نازلة فضربها وهزمها إمامة ثم سار على طريق نروا فصادف في

طريقه معسكراً آخر فحاربه وانتصر عليه وهزمه وفرّ المنهزمون إلى جهة نروا . ولما نظرهم رفاقهم وقع الـرعب في قلوبهم وخافوا مجيء كارلوس خصوصاً لأنهم كانوا عرضة لشدة البرد ووقوع الثلوج . وأصبحوا بانتظار وصوله . أما كارلـوس فلم يتردد عن قيادة جيشه القليل العدد ومدافعه التي كانت وقتئذٍ عشرة على جيش بطرس الذي كان عـدده ثمانين ألفـاً وعدد مدافعه مائة خمسين مـدفعاً . واغتنم كـارلوس فـرصة ريـاح عاصفة ثلجية عرقلة تحرك الروس فشن الغارة عليهم واقتحم مراكزهـم وانقض عليهم بغتة وهـم لا يعلمون مقدار قوتـه ولا عدد العساكـر التي كانت تقـاتل معـه . فقد تفـاجأوا بكثـافة المدافع الأسـوجية التي كانت كراتها تسلط عليهم . بالمقابل كان الودّ مفقوداً بين القائدين الروسيين كرواي ودلفروكي . كل واحد أخذ بفكر بالتخلي عن الآخر . في حين وضع الدوق كرواي خطة عسكرية خالفة فيها دولفروكي فـأفض الأمر إلى النزاع بينهما وعدم الاهتمام بمـواجهة الأسـوجيين . عندهـا هجم الضباط الروس على النمسـاويين فقتلوا كاتب كـرواي والأمير الأي لبون وجماعة من الضباط . وبهذا دبّ الخـوف والـرعب في قلب جيـوش بـطرس وتمكن الأسـوجيـون من الانتصار وشتتوا قواته .

الفصل الرابع

إصلاحات بطرس الأكبر الإقتصادية والإجتماعية

قبيل تسلم بطرس الأكبر مقاليد السلطة كانت الروسيا متأخرة إقتصادياً . فالزراعة ، التي كان يعمل فيها قطاع واسع من عامة الشعب ، تكاد تكون بدائية . والمواصلات سيئة ، أما التجارة الخارجية فقد كانت شبه معدومة نظراً للموقع الجغرافي والحصار الدولي الذي كان مفروضاً على روسيا من جهات العثمانيين والبولنديين والسويديين . ولهذا فإن موارد الروسيا الأساسية كانت تنحصر في وفرة الأخشاب وفراء الحيوانات والمواشي وبعض المنتوجات الزراعية .

ورغم أن بطرس قد بدأ حركة إصلاحاته بداية متواضعة عقب توليه الحكم الفعلي مباشرة ، إلا أنه يمكن القول أن إصلاحاته الكبرى بدأت عقب انتصاره على تشارلس الثاني عشر في يولتافا ، وكان الدافع إليها الرغبة في زيادة قوة الروسيا الحربية .

وإذا كانت نزعات بطرس وحاجته من ناحية وأحوال بلاده من ناحية أخرى قد تطلبتا هذه الإصلاحات ، فإن إعجاب بطرس أيضاً بكل ما هو أوروبي كان له أثره في إخراج هذه

الإصلاحات إلى حيز التنفيذ وصبغتها بالصبغة الأوروبية . وكان يقول أن عمله هو تحويل رعاياه من وحوش إلى آدميين ومن أطفال إلى بالغين . ورغم أنه قد أهمل تعليم بطرس ، إلا أنه تعلم طائفة من الفنون والمهارات في « الضاحية الألمانية » من موسكو ، كما تعلم أيضاً الاحترام العميق للعادات والأعمال الأجنبية . كذلك كان من حسن حظ الروسيا أن عهد برعاية بطرس وهو طفل إلى طائفة من المشرفين والمستشارين الأجانب الأكفاء ، ولا سيما السويسري ليفور . François Lefort . بالإضافة إلى ذلك كان بطرس يمتلك عبقرية حقيقية وحباً للمعرفة ومقدرة غير عادية على العمل . وقد لمس في رحلته الأولى إلى أوروبا (١٦٩٧) ، كما أشرنا مظاهر الحياة الإجتماعية في هذه المجتمعات المتعددة . مطلقاً على فنونها وعاداتها وتقاليدها وجوانب الحياة المدنية السياسية والإقتصادية من خلال اتصاله بملوكها وعلمائها . ومتجولاً في مصانعها ومعاملها ومطابعها . حتى أنه أمضى أكثر أيام رحلته يشاهد أعمال بناء السفن في أمستردام ودتفورد Deptford محاولاً التعرف على أسرار المهنة .

لذلك فطن بطرس الأكبر إلى الطريق إلى عظمة الروسيا ، وعرف أن ذلك لا يتأتى إلا إذا تحولت الروسيا إلى دولة أوروبية ، وقفزت إلى مصاف الدول الكبرى منها . وقد أخضع بطرس كل الإمكانيات وكرس كل جهوده تقريباً وعمل طيلة مدة حكمه في سبيل الوصول إلى هذا الهدف ـ يدفعه إلى

ذلك حبه لبلاده وتفانيه في سبيلها وليس لتحقيق مطمح شخصي . وكان هناك سبيلان لذلك اتبعهما بطرس في وقت واحد ، وهما توسع الروسيا إلى الغرب والجنوب وإيجاد منافذ لها على البحار ، واستبدال الروسيا لعاداتها الآسيوية الفنية بطرق الحياة الأوروبية الحديثة . والقول بأن كل ما قام به بطرس طيلة حكمه من نشاط وإصلاح ، إنما كان يقصد السيد قدما في هذين السبيلين يقرب كثيراً جداً من الحقيقة .

وفيما يتعلق بالتحول الأوروبي واجه بطرس صعوبات لا يستهان بها . فالروس كانوا يحرصون على عادات وتقاليد أجدادهم ويغارون كثيراً من الأجانب . ولكنه فرض إرادته وعبقريته على الدولة التي كان عليها أن تتبع ـ صاغرة ـ الطريق الذي رسمه لها . فهو ينشىء مثلاً مؤسسات لتعمل على تحسين العادات العامة للشعب الروسي وجعله أقرب إلى الأوروبي . وقد ساعدته الظروف أيضاً على ذلك بأن تخلص من أنصار القديم وأعداء الإصلاح وحل الحرس المناهض للتغيير إبان عودته من رحلاته الأولى في أوروبا وبذا أمكنه أن يقضي عنوة على العادات الروسية القديمة . فمنع إطلاق اللحى في البلاط وبالنسبة للنبلاء . وكان ذلك تحدياً للكنيسة التي لم تكن تحبذ هذا الأمر . ولكنه على أي حال أباح إطلاق اللحى نظير ضريبة معينة . ومنع لبس الأردية الطويلة للفلاحين حتى لا تعوقهم أثناء العمل رغم أنها كانت تمنع عنهم برد الشتاء الشديد . وقد وجه بطرس عناية خاصة إلى طبقة النساء . ففي خلال رحلته

إلى أوروبا شاهد حرية المرأة ونشاطها . فلما عاد ألغى نظام الحريم الذي كان معروفاً في المجتمعات الشرقية ، وحرر المرأة الروسية من نطاق التقاليد التي كانت تقضي بعزلتها عن مجتمعات الرجل ، وصار يدعو كلا الجنسين إلى حفلات القصر ، وشاركت المرأة الروسية في حياة البلاط والحفلات والاستقبالات . ورغم علاقات بطرس الأكبر المعنية بالنساء وفي حياته الشخصية ، فلا شك أنه أحرز تقدماً في مجال تحرير المرأة من قيود نظام الحريم .

وقد بنى بطرس مدينته سان بطرسبورغ لتكون عاصمة له وحلقة اتصال مع الغرب وتقوي الناحية الأوروبية في البلاط وفي الحياة العامة . وقد كان بطرس موفقاً في ذلك ، فهو لم يستطع أن يغير تماماً من الحياة في موسكو التي كانت محافظة وأقوى من كل تغيير ، والتي بقيت مركزاً لكل ما هو قديم وتقليدي في الروسيا .

بالاختصار نلمح الطابع الأوروبي في كل مجالات الإصلاح . وامتد ذلك الطابع إلى ميدان التعليم الذي جعل إجبارياً لأطفال طبقة النبلاء والذين كان عليهم إكمال تعليمهم بالخارج . وغير بطرس النتيجة الروسية وجعل السنة تبدأ بأول كانون الثاني مثل أوروبا بدل من أيلول . ووضعت أبجدية مبسطة للحروف الروسية ، وتأسست أكديمية روسية للعلوم

على النمط الأوروبي ولكنها لم تعمل إلا بعد وفاة بطرس .

سياسة بطرس الأول الإقتصادية والإجتماعية :

المانيفاكتورة :

في الربع الأول من القرن الثامن عشر ظهر في الروسيا حوالي ٢٠٠ مانيفاكتورة . وكانت أهم فروع الصناعة المانيفاكتورية التعدين وصناعة الأسلحة وأقمشة الكتان والجوخ . وظهرت كذلك مانيفاكتورات للجلود والجوارب والورق وغيرها من المانيفاكتورات التي كانت منتوجاتها ترسل إلى الأسواق . وكانت مصانع الحديد والنحاس تبني من قبل الدولة والتجار في المناطق الفنية مثل مدينتي تولا وليبتسك ومنطقة أولونيتس والأورال وسيبيريا . أما مؤسسات صناعة النسيج والصناعة الخفيفة فكانت تبني في موسكو وبطرسبورغ ويار وسلافل وكازان وغيرها من المدن .

وأخذت تتكون في الروسيا كوادر عمال المانيفاكتورات الثابتين الذين سبقوا البروليتاريا . أما العمال الأجراء فكانوا من سكان المدن ومن بين فلاحي الدولة والملاكين العقاريين الذين دفعوا ضريبة (الأوبروك). وكان السجناء سابقاً يحجزون في السجون. وأثناء حكم بطرس الأول صار الشحاذون والصعاليك والسجناء والمنفيون يجبرون على العمل في المانيفاكتورات بالقوة . وكان هؤلاء يعملون لقاء أجور يومية

زهيدة جداً . وانتشر عمل النساء والأطفال إنتشاراً واسعاً . وسمح للتجار أصحاب المانيفاكتورات بامتلاك القرى مع سكانها بعد شرائها من الملاكين العقاريين . وأطلق على الفلاحين الذين تم شراؤهم للمصنع اسم المملوكين . وكان هؤلاء هم نفس الفلاحين الأقنان ، إلا أن التاجر لم يكن يملك الحق في بيعهم بمعزل عن المانيفاكتورة . وبالإضافة إلى ذلك كان يحال الفلاحون من أملاك الدولة إلى المصانع ويحملون اسم المحالين . وكان عمل الأقنان يستعمل بصورة واسعة خصوصاً في مصانع الأورال التعدينية ومانيفاكتورات الجوخ .

وكان العمال يتعرضون لأقصى أنواع الاستثمار ألـلا إنساني . وكان طول يوم العمل ١٢-١٦ ساعة ، أما أجور العمل فكانت لا تضمن إلا حياة العامل وعائلته المعدمة نصف الجائعة . وكان لأصحاب المانيفاكتورات الحق في معاقبة العمال بالعصي وإرسالهم للأعمال الشاقة وإلى الجيش وما شابه . وفي النصف الأول من القرن الثامن عشر حدثت اضطرابات كبيرة بين عمال المانيفاكتورات . وساعدت حكومة بطرس الأكبر على تطوير الصناعة المانيفاكتورية بسماحها « لكل شخص » بتأسيس « مصانع للتعدين » في الأراضي التي تكتشف فيها مكامن الخامات الطبيعية . وكان التجار يتلقون قروضاً نقدية كبيرة لتنظيم مشروعاتهم ، كما كانت توضع تحت تصرفهم مؤسسات أنشأتها الدولة . وكانت

الحكومة تتخذ الإجراءات لتزويد المانيفاكتورات بالمواد الخام .

وساعدت هذه التدابير على نهوض الانتاج المانيفاكتوري نهوضاً كبيراً . فمنذ نهاية القرن السابع عشر حتى الثلاثينات من القرن الثامن عشر إزداد صهر حديد الصب من ١٥٠ ألف بود[١] إلى مليون بود في السنة . واحتلت الروسيا واحداً من الأماكن الأولى في أوروبا في إنتاج الحديد وحديد الصب ، فأخذت تصدر حديد الصب إلى الخارج . وتوقف نهائياً استيراد الأسلحة والمعدات الحربية للجيش .

الزراعة :

فرض بطرس الأكبر العمل على الفلاحين كما فرضه على النبلاء ، وأمكنه بذلك زيادة مساحة الأراضي المزروعة . ولكن ذلك كان على حساب طبقة الفلاحين التي قامت بإمداد بطرس بالقوى البشرية في شتى الميادين وبالأموال أيضاً . فعلى على عانق الفلاح وقع جزء كبير من أعباء بطرس المالية ، إذ أسهم في تمويل حروبه وفتوحه وتوسيع جيشه وأسطوله وتمويل الصناعات التي أقامها ومشروعاته البناءة . ومن ذلك أصاب الفلاح الإجحاف ، إذ فرض بطرس ضريبة على كل فلاح مهما كانت سنه أو مقدراته على العمل ، وبذلك

---

(١) البود ـ مقياس روسي قديم للوزن يعادل ١٦,٣٨ كلغ .

تساوت الضريبة رغم تفاوت القـدرة على الانتاج . ولم يكن هذا هو كل ما عـاناه الفـلاح ، فقد اتسـع نطاق نـظام رقيق الأرض ، وفرضت القوانين الصارمة لذلك ، ورفض بـطرس بشدة إلغاء ذلك النظام . وبذك أحكمت قيود خدمة الأرض ، وصار الفلاحون في أراضي الدولة في حالة تشبه عبيد الأرض تماماً ، وامتد قانون خدمة الأرض أو العبودية بالنسبة لها إلى طبقات جديدة من الفلاحين الأحرار .

أن السيـاسة التي أتبعهـا بطرس الأكبـر أحدثت بعض التقدم في مجال الزراعة . إذ تطورت زراعة التبـغ وصناعـة النبيذ في مناطق البلاد الجنوبية والشرقية وزراعة الكتـان في روسيا الوسطى . وجرى تأسيس مراكز تربية الخيول ومـرابع تـوليد الأغنـام الأصيلة والمـواشي الحلوية . غيـر أن سيطرة القنـانة وأشغـال أعداد كبيـرة من الفلاحين في أعمـال البناء والجيش تركا أثراً بالغاً في حالة القرية . فكثيراً ما كان يحدث المحل والجوع . وظلت الزراعة أكثـر فروع اقتصـاد الدولـة الاقطاعية جموداً .

التجارة الداخلية والخارجية:

لقد تطورت التجارة الداخلية والخارجية بصورة كبيرة . وازداد تبـادل منتجات الانتـاج الحـرفي والصنـائـع المحليـة والزراعة . وبإزياد عدد سكان المدن إزداد الطلب على المواد الغـذائية وغيـرها من البضـائع . وسـاعد إنشـاء قنـاة فيشني

فولوتشوك وقناة لادوغا[1] على تطور التجارة الداخلية .

ولعبت مدينة بطرسيورغ دوراً كبيراً في التجارة الخارجية . ففي عام ١٧٢٥ بلغ عدد السفن التجارية التي وصلت ميناء بطرسيورغ حتى ١٠٠٠ سفينة . وتطورت التجارة الخارجية أيضاً عن طريق الموانىء الأخرى في منطقة البلطيق مثل فيبورغ وريفا وريغيل . وكانت أهم مواد التصدير هي التيل والكتان والشحوم والحديد والجلود المدبوغة والأنسجة الكتانية والأخشاب .

أما مواد الاستراد فهي الأجواخ والأصباغ والخمور والسكر والأنسجة القطنية . وكان مبلغ التداول التجاري الخارجي العام لروسيا يزيد على ستة ملايين روبل .

وكانت الحكومة تشجع تطور التجارة الداخلية والخارجية . فقد هيأت الظروف الملائمة لتصدير البضائع الروسية إلى الخارج وعملت على تحديد استيراد البضائع

---

(١) قناة فيشني فولوتشوك : (المسماة باسم مدينة فيشني فولوتشوك ، الواقعة حالياً في مقاطعة كالينين بجمهورية روسيا الاتحادية) هي طريق مائي اصطناعي يصل أعالي نهر الفولفا ببحر البلطيق . وقد افتتحت عام ١٧٠٩ .
أما قناة لادوغا فقد أنشأت عند الضفة الجنوبية لبحيرة لادوغا (إلى شمال ـ شرقي بطرسيورغ) لتسهيل سير السفن وذلك لأن الأمواج القوية المستمرة في بحيرة لادوغا العميقة كانت تعرقل الملاحة .

الأجنبية التي كان من الممكن إنتاجها في الروسيا بفرضها ضرائب جمركية عالية عليها . وطبق بطرس الأول سياسة المركنتلية[1] وهو يكافح من أجل زيادة التصدير على الاستراد وتوفير رؤوس الأموال النقدية في البلاد .

إرتفاع شأن الدفوريان:

لقد صاحب إرتفاع شأن الدفوريان تعزيز ملكية الملاكين العقاريين للأرض . فبموجب مرسوم وحدة الإرث عام ١٧١٤ اعتبرت العقارات التابعة للدفوريان مساوية للعقارات الموروثة وملكاً موروثاً للمالكين . غير أن الدفوريان ظلوا كالسابق ملزمين بالخدمة في الجيش .

ولعب أدخال بطرس الأول في عام ١٧٢٢ لما يسمى بـ «قانون المراتب» دوراً كبيراً في تقوية الامتيازات الطبقية

---

(١) المركنتلية : (من كلمة Mercantor « بائع » الإيطالية) هي السياسة الاقتصادية للدولة الإقطاعية التي تعكس مصالح رأس المال التجاري (التجار) أو مجموعة من الآراء الاقتصادية مطابقة لهذه السياسة ترى أن مصدر غنى البلاد هو مجال التبادل وليس مجال الانتاج . وكان ممثلوا طور المركنتلية الأول المسمى بالطور النقدي ، يعتقدون أن رفاه الدولة يعتمد على توفير أكبر قدر ممكن من الرأسمال النقدي (الفضة والذهب) في البلاد . أما ممثلوا المركنتلية المتطورة فكانوا يرون مصدر الغنى في زيادة تصدير البضائع إلى خارج البلاد على استيرادها (نظرية الميزان التجاري الإيجابي) . ونفذ الأمبراطور الروسي بطرس الأول سياسة المركنتلية المتطورة في روسيا بداية القرن الثامن عشر .

للدفوريان . وحدد هذا القانون نظام تأدية الدفوريان للخدمة في الدولة على اعتبارهم ضباطاً في الجيش والأسطول ، وموظفين ، وخدماً في الحاشية . وقسم القانون جميع الدفوريان في الخدمة إلى ١٤ رتبة تناسبها وظائف معينة . ففي الجيش تبدأ هذه الرتب ، مثلاً ، من الملازم الثاني وتنتهي بالمشيرة . أما في الخدمة المدنية فمن مسجل الهيئة الذي هو أدنى موظف حتى أعلى موظف ـ المستشار . وصار لإنباء الفئات الأخرى حق اعتبارهم من الدفوريان وراثياً بعد أن يترقوا في الخدمة حتى رتبة معينة . وحصلت كل سلاله من سلالات الدفوريان على شعار . وكانت الدولة تمنح الدفوريان الممتازين في الخدمة عقارات موهوبة وأوسمة . كما كانت تعينهم في وظائف الجيش والجهاز الحكومي العالية . وأصبحت فئة الدفوريان السند الأساسي للحكم المطلق الروسي ، وهي تزيح إرسقراطية البويار والأمراء العريقة وتجعلها في المؤخرة .

ولعل التجار كانوا من الفئات القلائل التي أفادت من الأوضاع الجديدة التي أتى بها بطرس الأكبر . كان التجار يكونون حوالي ثلاثة بالمئة فحسب من عدد السكان في الروسيا ، وهؤلاء لم تكن لهم مكانة مرموقة بالمجتمع . وقد عمل بطرس على اضطهادهم ونموهم وهذا دعا إلى ارتفاع مركزهم الاجتماعي . ما عاد تأسيس النقابات لتعزيز التجار وتوطيد مكانتهم وتوجيه نشاطهم وإيجاد رابطة بينهم وبين

الدولة . ومع ذلك فلم يكن التجار يرحبون بإصلاحات بطرس وتجديداته ، وكانوا يفضلون التمسك بعاداتهم التقليدية .

متابعة استعباد الفلاحين:

وعندما رفعت حكومة بطرس الأول من شأن الدفوريان شددت من استعباد الفلاحين . إذ وسعت أملاك الدفوريان العقارية على حساب أراضي فلاحي الدولة والحاشية الذين حولوا إلى قنان . واستولى الملاكون العقاريون الروس على أراض في أطراف البلاد الجنوبية وفي منطقة الفولفا وفي أوكرانيا . وكان فرض الضريبة الشخصية على جميع الفلاحين التابعين للدولة والملاكين العقاريين وكذلك على الرجال من سكان المدن بغض النظر عن أعمارهم وقابليتهم على العمل قد أدى إلى اشتداد إضطهاد القنانة . وشملت الضريبة الشخصية الأرقاء أيضاً . ونتيجة لذلك صار الأرقاء وفلاحوا الملاكين العقاريين صنفاً واحداً من الفلاحين الأقنان .

وسادت حالة الجماهير الواسعة إلى درجة كبيرة . ووقعت مصاريف الحروب وتكاليف الجيش والجهاز البيروقراطي النامي ومصاريف إنشاء المدن والقلاع الجديدة والأقنية والمانيفاكتورات الحكومية عبئاً ثقيلاً على كاهل الشعب .

الإنتفاضات الشعبية:

أدت سياسة إثقال الشعب بالضرائب وبالسخرة إلى استياء جماهيري عام على بطرس الأكبر . ففي عام

١٧٠٥-١٧٠٦ أقامت انتفاضة في آسترخان شارك فيها القناصة والجنود والصناع وسكان البوسادات والفلاحون الهاربون . والتحق بثوار آسترخان سكان القرى المحيطة بالمدينة وقوزاق نهر تيرك(١) . وقتل التوار قائد المدينة وانتخبوا حكومتهم الخاصة . وظلت السلطة بيد الشعب التائر طوال تسعة أشهر . وفي ربيع عام ١٧٠٦ وصلت إلى المدينة أفواج الجيش النظامي التي أرسلت لقمع الانتفاضة . وفي ذلك الحين حدث انقسام بين المشاركين في الحركة . لقد عارض التجار الأغنياء والقناصة مطالب الشعب في توزيع الأموال والحبوب الخاصة بأغنياء المدينة على الفقراء الجياع . وأضعف هذا الشقاق قوى الثوار . وفي معمعان المعركة خرج رؤساء قوات القناصة وأغنياء المدينة من الكرملين المحاصر معترفين بذنبهم . وقمعت الانتفاضة وتعرض الكثير من المشاركين فيها للتعذيب والإعدام .

وأثار الاضطهاد القومي والاستعماري القاسي احتجاج الشعوب غير الروسية . فاستمرت الانتفاضة في باشكيريا ، مثلاً ، عدة سنين ١٧٠٥-١٧١١ .

وفي عام ١٧٠٧ اشتعلت نيران انتفاضة كبيرة معادية

---

(١) كان قوزاق نهر تيريك يخدمون الدولة الروسية ويعيشون على شواطىء نهر تيريك الذي يصب في بحر قزوين . وقد ظهرت أول قرى لهؤلاء القوازق في القرن السادس عشر . وأنشأ مركزهم الأساسي ، مدينة تيريك ، في مصب نهر تيريك عام ١٥٨٨ .

للإقطاعية على الدون . وكانت نواة الانتفاضة من فصائل فقراء القوازق والفلاحين الهاربين الذين كانوا يعيشون في المدائن العليا على روافد نهر الدون . والتحق بهم عمال استخراج الملح وكذلك الفلاحون والقوزاق الأوكرانيون . وأباد المتمردون فصيلة يو . دولفوروكي التأديبية التي أرسلت إلى الدون للقبض على الفلاحين الهاربين وإعادتهم . وترأس الحركة القوازاقي كوندراتي بولافين من الدون . وتوجهت فئة القوزاق العليا التي ترأسها الأتمان العسكري لوكيان مكسيموف ضد بولافين وحطمت فصيلته ، فالتجأ بولافين إلى زابورجية .

وفي ربيع ١٧٠٨ استؤنفت الحركة بقوة جديدة . فتحرك بولافين من مدينة بريستانسكي على خوبير نحو مدينة تشيركاسك ـ عاصمة جيش الدون[١] . وفي طريقه إليها كان يوزع « رسائل الدعوة » على جميع « الرعاع » . يستشيرهم

(١) كان جيش الدون أو أراضي جيش الدون ، يقع في أواسط وأسفل نهر الدون وسكن هذه الأراضي الأقنان الذين هربوا إليها في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر والذين وضعوا أساس قوزاق الدون . وبالتدريج تكونت في الدون إدارة ذاتية . وكان القوزاق ينتخبون (الأتمان) وغيره من القادة العسكريين . وكان الأتمان يعقد العلاقات باسم « جيش الدون » مع الحكومة الروسية التي كان القوزاق يشملون منها مرتبات العيش والرصاص والبارود للدفاع من للدفاع عن الدولة الروسية من هجمات تتر القرم الذين تؤيدهم تركيا .

فيها للقضاء على البويار والقواد وإطلاق سراح السجناء من سجونهم والالتحاق بقوات الانتفاضة . وسرعان ما ازدادت فصيلة بوفلاين حتى بلغ عداد أفرادها خمسة آلاف شخص . وتم تحطيم القوات القيصرية وفصيلة لوكيان مكسيموف التي واجهت بولافين من آزوف . وعندما اقترب بولافين من تشيركاسك كان عدد أفراد جيشه حوالي عشر ألفاً .

وشملت الحركة إنذاك أعالي الدون مع روافده حيث كانت مدائن عديدة مأهولة بالهاربين والناس « العاطلين » وكذلك القسم الأسفل من الفولفا حتى تساريتسين وساراتوف ، ثم أقضية الدولة الروسية الجنوبية (مثل قضائي تاميوف وكوزلوف) . وأباد القوزاق الفقراء والفلاحون القواد القيصريين وانتخبوا (أتماناتهم) . واحتلت فصائل القوازق والفلاحين مدينتي يورديسوغليبسك ويامبول وكذلك مدينتي كاميشين وتساريتسين على الفولفا وحاصرت ساراتوف .

وفي أيار عام ١٧٠٨ احتل بولافين مدينة تشيركاسك بمساعدة قوزاقها الفقراء الثائرين . وأعدم لوكيان مكسيموف ، وانتخب بولافين اتماناً عسكرياً . وحاصرت فصائل بولافين قلعة آزوف القوية ولكنها لم تستطيع احتلالها .

وأرسلت الحكومة القيصرية لإخماد الانتفاضة في الدون جيشاً قوياً بقيادة ف . دولفوروكي شقيق رئيس الفصيلة القيصرية الذي قتله القوزاق . واستغلت قوات الحملة التأديبية

غلطة بولافين الذي لم يستطع أن يركز قواته ووثق بفئة القوزاق العليا . وحاكت هذه الفئة مؤامرة في تشيركاسك قتل بولافين على أثرها .

غير أن الانتفاضة استمرت حتى مقتل بولافين . وقاومت فصائل القوزاق والفلاحين القوات القيصرية طويلاً . وحطمت فصيلة نيكيتاغولي العديدة الآلاف فوجاً من الجيش القيصري النظامي .

وحتى خريف ١٧٠٨ كانت الانتفاضة قد أخمدت بقسوة . فقتلت الفصائل التأديبية القيصرية آلاف الثوار وأحرقت مئات الأماكن المأهولة ، ولم ترحم حتى النساء والأطفال . أما (مدائن) الفلاحين الهاربين في أعالي الدون فقد حطمت تحطيماً .

لقد كانت الانتفاضة بقيادة بولافين واحدة من الحركات الكبرى المعادية للإقطاعية في تاريخ روسيا ولم تجرؤ الحكومة القيصرية بعد إخمادها للإنتفاضة على تصفية الإدارة الذاتية لقوزاق الدون تصفية نهائية . وظل الفلاحون الأقنان الهاربون من أقضية البلاد الوسطى يختبؤون هنا بعد ذلك طويلاً .

الفصـــل الخامـس

تكوين الحكم المطلق

عمد بطرس الأكبر إلى تغيير النظام الحكومي بـأجمله محاولاً تقليد النظم التي رآها في الخارج . وبشكل عام ففي مجال الإصلاحات الخاصة بالنظم كان تأثير السويد واضحاً . فبطرس درس النظم السويدية ببعض التفاصيل ، ومشروعاته الإصلاحية في ذلك والتي وضحها عام ١٧١٥ كانت بوضوح مؤسسة على التقسيم السويدي للوظائف . بالإختصار نلمـح الطابع الأوروبي في كل مجالات الإصلاح .

إصلاح الإدارة المركزية . مجلس السينات[١] والهيئات:

في الربع الأول من القرن الثامن عشر تكون نظام جديد لمؤسسات الدولة . وتشكل الحكم المطلق في روسيا بصورة نهائية . ووصفت الدولة الروسية في القرن الثامن عشر بدولة الموظفين والدفوريان الملكية حيث استند الحكم المطلق إلى بيروقراطية الموظفين وفئات المستخدمين مباشرة ومـر ببعض فترات « الحكم المطلق المستنير » . واستطاع بـطرس الأول

---

(١) مجلس السينات Senat أي مجلس الشيوخ .

باعتماده على الدفوريان أن يكسر شوكة إرستقراطية البويار الرجعية وأن يصفي مجلس دوما البويار وأن يعلن نفسه قيصراً مطلقاً بعد أن إتخذ لقب الأمبراطور . ونص القانون على أن « أمبراطور عموم روسيا هو ملك مطلق الصلاحية وغير مسؤول . وأمر الله نفسه بطاعة سلطته العليا ليس خشية منها فقط ، بل وإنصاتاً لصوت الضمير » .

وبمرسوم عام ١٧١١ تم تشكيل مجلس السينات (أي مجلس الشيوخ) كجهاز إداري أعلى يختلف عن دوما البويار بكونه جهازاً بيروقراطياً ينفذ أوامر الأمبراطور . وكان مجلس السينات يقوم بمراقبة الإدارة المركزية والمحلية وكذلك جمع وصرف الضرائب ويضع القوانين تنفيذاً لمراسيم الأمبراطور .

وكان المدعي العام يراقب أعمال مجلس السينات ومكتبه ، فهو « عين الأمبراطور » في هذا المجلس .

وفي عام ١٧١٨ تأسست الهيئات التي حلت محل الدوائر . وصارت كل هيئة تدير شؤون فرع معين من فروع إدارة الدولة : فكانت هيئة الشؤون الخارجية تدير شؤون السياسة الخارجية ، والهيئة العسكرية تدير شؤون الجيش البري ، وهيئة االأميرالية تدير شؤون الأسطول البحري ، وهيئة العدلية تدير شؤون المحاكم المدنية والجنائية ، وهيئة التعدين وهيئة المانيفاكتورات تديران شؤون صناعة التعدين والمانيفاكتورات وغيرها .

وكان يرأس كل هيئة رئيس ونائب رئيس وبضعة

مستشارين . وكانت جميع المسائل المطروحة تحل ليس من قبل الرئيس وحده ، بل بالتشاور بين جميع أعضاء الهيئة . ولإدارة أعمال الهيئات . ومكاتبها صدرت اللائحة العامة ولائحة هيئة المانيفاكتورات واللائحة الدينية وغيرها . وكانت جميع أجهزة الدولة خاضعة لنظام صارم . وكل هذا كان يميز الهيئات عن دوائر القرنين السادس عشر والسابع عشر .

وكان للبوليس السري مكان خاص في نظام الأجهزة المركزية . فكانت قضايا المجرمين بحق الدولة (ومن ذلك المشاركة في « التمردات » والمؤامرات السياسية وقضايا «شتم صاحب الجلالة » من اختصاص دائرة بريو براجشكي ، ثم المكتب السري وكانا تحت إشراف الأمبراطور نفسه .

الإصلاح الكنسي:

ربما كان الإصلاح الخاص بالكنيسة من أهم الإصلاحات بالنسبة لبطرس . وكان ذلك ضرورياً لطاغيه مثله حتى يمارس طغيانه دون معوق . فالبطريرك الروسي patriachx الروسي كان من المركز مثل ما للقيصر تقريباً . لذلك ترك بطرس هذا المنصب خالياً دون أن يعين بطريركاً جديداً ، وظل الحال كذلك من عام ١٧٠٠ حتى عام ١٧٢١ . وفي ذلك العام ألغى بطرس الأول وظيفة البطريركية ، وأنشأ مكانها مجلساً مقدساً Holy Synod يتولى شؤون الكنيسة بإشراف البلاط التام . وهذا المجلس لم يتدخل في السياسة أو يمارس نفوذاً في ذلك المجال إلا بصورة باهتة . كذلك

وضعت إدارة أملاك الكنيسة تحت إشراف الدولة التي أعاقت نمو الأديرة . وامتد التسامح ليشمل الطوائف غير الأرثوذكسية باستثناء اليهود . وهكذا تحولت الهيئة الدينية المكونة من ممثلي رجال الدين الكبار إلى جهاز بيروقراطي خاضع لإرادة القيصر .

وكان المجمع المقدس يعاقب جميع « الكفرة » بقسوة كبيرة ويبث الديانة المسيحية بالقوة بين الشعوب غير الروسية ويقوم بالرقابة على المطبوعات .

وكان يشرف على نشاط المجمع المقدس نفسه المدعي العام الأول ، وهو موظف مدني يعينه القيصر لهذه الوظيفة . وضيق بطرس الأول من حدود أملاك الكنيسة لصالح الدفوريان . وكان يتصرف بتسلط بعقارات الكنائس والأديرة وواردانها ويستخدمها لدى احتياجات الدولة . وأثارت كل هذه الإجراءات تذمر بعض رؤساء الكنيسة الذين قاوموها مقاومة عنيفة . واحتج المطران ستيفان بافورسكي الذي كان يشغل منصب البطريرك قبل تشكيل المجمع المقدس وكذلك أنصار هذا المطران على تدخل القيصر في شؤون الكنيسة . ولكي يخضع رجال الدين ذوي الرداءات السوداء (الرهبان) للسلطة القيصرية بصورة أقوى ، منع بطرس الأول ترهب الناس الذين يقل عمرهم عن الثلاثين وكذلك الفلاحين الأقنان . أما الرهبان الهاربون . فقد أمر « بتقييدهم بالسلاسل وتشغيلهم في الأديرة حتى الموت » . وأوجب بطرس الأول على جميع

القساوسة بأن يقرأوا المواعظ والنصائح في الكنائس « لتبصير الفلاحين وبأن يعلموا الأطفال الصلاة لكي يتربوا « منذ نعومة أظفارهم » على مخافة الله وإطاعة القيصر . وأصبحت الكنيسة سنداً إيديولوجياً للحكم المطلق الروسي .

إصلاح إدارة المدن:

في الربع الأول من القرن الثامن عشر بلغ عدد سكان المدن ٣٥٠ ألف نسمة . وتعمق أكثر التمايز الاجتماعي بين فئات السكان في المدن . إذ تفوت الفئة العليا الغنية من التجار والباعة وأصحاب المانيفاكتورات والورشات الحرفية ومالكي السفن . وكان القسم الأكبر من سكان المدن يتكون من الحرفيين والعاملين الصغار الذين يطعمون أنفسهم من الأجور التي يحصلون عليها مصادفة . وعاش في المدن الكبيرة عدد من عمال المانيفاكتورات ليس بقليل .

وكان بطرس الأول منذ بداية عهده بالحكم أسس في موسكو مجلس العمدات (العمد رئيس الإدارة الذاتية في المدينة) . أما في مدن الأرياف فأسس وظيفة العمدات المنتخبين . واستجابة لمصلحة الفئة العليا في المدن أخرج بطرس الأول سكان (البوسادات) من دائرة صلاحيات القواد . وفي عام ١٧٢٠ تمَّ في مدينة بطرسبورغ تأسيس المأمورية الرئيسية التي كانت تخضع لها المأموريات المحلية ورؤساؤها من العمدات والمستشارين المنتخبين من بين سكان المدن . وانقسم جميع المواطنين إلى قسمين : « المنتظمين »

و « الرعـاع » (السفلة) . وانقسم المنتـظمون إلى طـائفتين تضم الأولى والتجـار الأغنيـاء وأصحــاب « المهن الحـرة » (الأطبـاء والصيادلـة والفنـانـون وغيـرهم) ، وتضم الثـانيـة الحرفيين والباعة . وكان الحرفيون موحدين في ورشات حسب مهنهم . ولم يكن « الرعاع » الذين يعلمون بالأجرة يعتبرون من المواطنين « المنتظمين » ولم يتمتعوا بحقوق هؤلاء .

وكان انتماء التجار إلى الطائفـة الأولى أو الثانيـة يعينه مقدار رأسمالهم . وكانت للتجار ـ أصحاب المانيفـاكتورات امتيازات خاصة . إذ كانوا محررين من إداء الخدمة المـدنية (مثل إداء واجب أيواء أفراد الجيش ، وتنفيذ واجبات الوظائف المنتخبة والخدمة في الجيش) ، وكانوا تحت إشراف هيئـة المانيفاكتورات .

وهكذا وسع بطرس الأكبر القاعدة الاجتمـاعية للحكم المطلق في المدن وأنشأ له سنداً أكثر متانة وتنـظيماً من بين « المواطنين المنتظمين » بتقديمه العون لفئة التجار التي كانت تنمو حينذاك . وساعد الإصلاح الخاص بالمدن على النهوض الاقتصادي في المدن وازدياد عدد السكان . وسمح القانون لجميع الذين يمارسون الصناعة الحرفية « لأغـراض البيع أو لصـالح أنـاس آخرين » بـالانتقال إلى المـدن والانتماء إلى الورشات . وسهل السماح للناس من مختلف الرتب بالمتاجرة الحـرة عملية تقـاطر السكـان على المـدن . وحـددت هـذه الإجراءات جزئياً بند قانون المجمع لعام ١٦٤٩ الذي أوجب

على الفلاحين بيع منتوجاتهم في المدن من عرباتهم وأرزاقهم فقط .

إصلاح الإدارة المحلية:

في عام ١٧٠٨ قسمت البلاد كلها إلى ثماني محافظات ، وذلك لتقوية جهاز السلطة المحلي ولتكوين إدارة أكثر مرونة ومركزية . وبعد ذلك ازداد عدد المحافظات . وكان المحافظون الذين يعينون بأمر القيصر يرأسون هذه المحافظات . وكانت تتركز في أيدي المحافظين السلطة الإدارية والعسكرية والقضائية . وكانت المحافظات مقسمة في البداية إلى أقضية ثم إلى أقاليم .

وتشكلت هيئة روسيا الصغرى لإدارة شؤون أوكرانيا يرأسها ضابط قيصري ، وهي تراقب نشاط (الفيتمان) . وبعد موت الفيتمان سكوروبادسكي في عام ١٧٢٢ منعت انتخابات فيتمان جديد وعين فيتمان موقت .

الإصلاح العسكري:

يمكن القول أن كل إصلاحات بطرس الأكبر تقريباً كانت لسد احتياجات الجيش والبحرية ، وكان بطرس ـ كما يقول ـ يريد أن يضمن لبلاده « الأمرين الضرورين في الحكومة وهما النظام والدفاع » . وهو لذلك يهتم بالجيش والأسطول من أول الأمر . ثم أثناء حكم بطرس تشكل الجيش النظامي في الروسيا . وكان أفراد الجيش مكونين بالقرعة العسكرية من الفلاحين وسكان المدن ، أما ضباطه فكانوا جميعاً من

الدفوريان . وكانت الخدمة في الجيش تستمر طوال حياة الشخص . وقد استخدم بطرس الجنود للخدمة في الجيش وحفظ الأمن على السواء .

وكانت القوات العسكرية مسلحة ببنادق ذات زناد صواني وحربه مصنوعة في المروسيا . وكانت مجهزة ببزاة واحدة . وكانت هذه القوات تتدرب على فن الحرب بانتظام . وكانت المدفعية قد تفوت بصورة خاصة .

واستبدلت المدافع العتيقة كلها بمدافع جديدة ـ المدافع الطويلة ومدافع الهاون والمدافع القيصرة المصنوعة حسب تصاميم الأخصائيين الروس .

وانتشأت على الحدود قلاع جديدة حسب أصول فن الهندسة العسكرية لذلك الزمان ، كما انشأ في بحر البلطيق أسطول حربي قوي . وأثناء حكم بطرس الأول تم في أحواض بناء السفن في بطرسبورغ بناء ٥٢ سفينة شراعية وبضع مئات من مراكب الجذف وغيرها من السفن .

ولعب النظام العسكري لعام ١٧١٦ دوراً كبيراً في تقوية الجيش . فكانت التعاليم العسكرية تتطلب من الضباط أن يعلموا الجنود « كيفية التصرف في ساحة القتال » و « أن يعرفوا الفن العسكري من أساسه » وعدم التمسك بالنظام « كتيسك الأعمى بالحائط » ، بل أن يظهروا في القتال روح المبادرة المعقولة .

وكان الضباط الروس المتخرجون من المدارس

العسكرية التي افتتحت أثناء حكم بطرس الأول يسدون حاجات الجيش والأسطول بصورة تامة ، مما جعل القيصر يتخلى عن استخدام الضباط الأجانب .

ونتيجة الإصلاح العسكري أصبح الجيش والأسطول الروسيان من حيث التنظيم والتسليح والفن العسكري في منزلة جيوش بلدان أوروبا الغربية ، بل وتفوقاً عليها . فقد الحقا الهزيمة بالجيش السويدي وهو من أقوى الجيوش في أوروبا ، وأظهرا ميزاتهما القتالية العالية طوال القرن الثامن عشر كله .

نتائج الإصلاحات :

فقد تأثرت طبقات من المجتمع الروسي بإصلاحات بطرس الأكبر ولكنها لم تعد جميعها في ظل هذه الإصلاحات التي كان يهدف بها بطرس أولاً وقبل كل شيء إلى عظمة الروسيا . فالنبالة مثلاً لم تعد مقصورة على الوراثة ، بل امتدت إلى هؤلاء الذين يخدمون القيصر ، وبذلك جعلت النبالة تعتمد على الخدمة أكثر من اعتمادها على الميراث بالمولد . وكافأ بطرس النبلاء بمنحهم الإقطاعيات التي تصير بعدئذٍ وراثية . وفي عام ١٧٢٢ رتب المراكز في الدولة ـ حربية ومدنية ـ إلى أربع عشر درجة ، وكان على النبلاء أن يبدأوا من أسفل ويصعدوا إلى أعلى الدرجات . ولكن هذا الوضع على أي حال تغير بعد موت بطرس وصار لصغار النبلاء وضع خاص في خدمة الدولة يتدرجون منه إلى أعلى .

مع هذا كان لإصلاحات بطرس الأكبر في الربع الأول من القرن الثامن عشر أهمية تقدمية كبيرة . إذ عززت هذه الإصلاحات الدولة الروسية ووضعتها في صف الدول العظمى في أوروبا . وساعدت الإصلاحات على التغلب على التأخر الاقتصادي والتكنيكي والثقافي الذي استمر في روسيا قروناً . ووصف فريدريك أنجلز الشعب الروسي في هذه المرحلة (بالأمة الناهضة) ونوه بنجاحات روسيا في النضال من أجل الاستقلال الوطني .

ولكن هذه الإصلاحات أدت في الوقت نفسه إلى اشتداد اضطهاد القنانة في البلاد . فكان جهاز الموظفين والدفوريان القيصري يقدم بقمع الانتفاضات الشعبية بكل قسوة ، وينهب شعوب الأمبراطورية غير الروسية بكل قسوة ويعرضها للاضطهاد القومي . ويؤخذ على بطرس الأكبر أن مشروعاته يشوبها اللهفة والتسرع ، فكان يقوم بها حسب حاجة الجيش وحاجته إلى المال ، ولذا لم تتسم بالعمق والدراسة . كذلك أضر بطرس من نواح بمصالح الشعب الروسي ، إذ أثقل كاهله بالضرائب ، وامتد طغيانه إلى الفلاحين الذين لم يفعل لهم شيئاً لتحسين أحوالهم . إلى جانب ذلك أنشأ بطرس نظاماً للتحريات والتحقيقات ، وهو أمر أدى خدمة جليلة لطغيانه ولكنه أضر بمصالح الشعب .

ورغم كل ما بذل بطرس من مجهودات وما جاء به من نظم دقيقة ، فهناك داء وبيل لم يستطع بطرس علاجه ، فقد

عين الموظفين لتنفيذ نظمه وحدد وظائفهم ، ولكنه لم يستطع أن يجعلهم شرفاء أمناء مخلصين ولم يستطع وقف الفساد المستشري بين الموظفين .

من جهة أخرى أثارت الإصلاحات التقدمية لبطرس مقاومة من قبل أوساط إرسقراطية البويار العريقة الرجعية ورجال الدين الكبار . وكان تمرد القناصة الرجعيين عام ١٦٩٨[1] موجهاً ضد هذه الإصلاحات أيضاً . وكان من بين

---

(١) بعد احتلال آزوف في عام ١٦٩٦ ظل قسم كبير من القناصة الموسكوفيين للخدمة في القلعة المحتلة ، وبعد ذلك أرسلت عدة أفواج من القناصة إلى الحدود الروسية البولونية . وفي ربيع عام ١٦٩٨ عندما كان بطرس الأكبر خارج البلاد قامت أربعة أفواج من القناصة بتمرد بناء على دعوة الأميرة صوفيا التي أجبرت على الاعتكاف في دير نفوديفيتش قبل ذلك بتسع سنوات . وتحرك القناصة من الحدود البولونية نحو موسكو ، ولكن القوات الوفية لبطرس حطمتهم قرب دير فوسكريينسكي في ضواحي موسكو . وأجبرت هذه الحوادث بطرس الأول على قطع رحلته خارج البلاد والإسراع في العودة من فيينا إلى روسيا . وأثبت التحقيق صلات القناصة بالأميرة صوفيا أخت بطرس الأول وكذلك عزمهم على قتل بطرس . وأعدم مئات القناصة ، بينما أرسل الآخرون إلى المدن النائية أما الأميرة صوفيا فقد أجبرت على أن تترهب في الدير باسم سوزانا . وفي عام ١٦٩٩ بدأ بطرس الأول بتشكيل أفواج المشاة النظاميين (الجنود) بدل مشاة القناصة الذين صفاهم . وكان لهذه الأفواج تنظيم موحد وسلاح من نوع واحد (بنادق ذات زناد صواني وحربة) .

أعداء الإصلاحات الأمير ألكسي ابن بطرس الأول الذي حكم عليه بالاعدام في عام ١٧١٨ بتهمة الخيانة العظمى .

في الواقع أن إصلاحات بطرس الأكبر مع أهميتها ـ لم تخلف نظاماً جديداً للدولة . فهذه الإصلاحات والمطامح كانت إلى حد كبير امتداداً سريعاً ونشيطاً للأفكار والأساليب التي وجدت بالفعل في الأجيال السابقة . وبذلك عاش القديم والجديد متعارضين أحياناً ومتحدين أحياناً أخرى . والقيصرية في عهده اتخذت لها طابعاً خاصاً يرجع إلى صفات بطرس ومقدرته الغير عادية . ومع ذلك فالحكم في عهده ، كما رأينا ، ظل كما كان من قبل يعتمد على مجموعات متعددة من أصحاب الأراضي وعلى النظام القائم .

وثيقة في وصف مانيفاكتورة النسيج في موسكو:

« . . . ركبنا الزحافة وتوجهنا إلى المدينة لزيارة المعمل الكبير الواقع في دار حجرية كبيرة . . . وعندما وصلنا إلى هناك شاهدنا كل شيء بالترتيب . وينبغي أن أعترف بأني لم أكن أتصور بأن صاحب العمل يستطيع أن ينشأ هنا مثل هذه المؤسسة في مثل هذه الحالة المزدهرة . ويضم المعمل مائة وخمسين ماكينة نسيج يديرها الروس وحدهم تقريباً . ويقوم هذا المعمل بإنتاج كل ما يمكن أن نتطلبه من معمل النسيج ، أي كل أنواع الأنسجة من أخشنها إلى أرقها وكذلك الأقمشة الرائعة لخياطة أغطية الموائد وفوطها ، والقماش المخطط الرقيق والسميك ، وكذلك شراشف الفرش الضيقة والواسعة

جداً ، ونسيج الكتان المخطط لملابس الرجال ، والمناديل الملونة وعدد كبير آخر من الأشياء المماثلة . . .

ويملك (صاحب المانيفاكتورة) عدة حوانيت لبيع بضائعه ، بالإضافة إلى ذلك يرسل كمية كبيرة منها إلى ما وراء البحار ، فضلاً عن الكميات الكبيرة التي يقدمها للخزينة كل عام . ومن هناك ذهبنا إلى المكان الثالث حيث يقع مغزل . . . وقادنا (صاحب المانيفاكتورة) أولاً إلى قسم النساء حيث تشتغل الفتيات اللواتي حكم عليهن بالعمل في معمل النسيج مدة عشر سنوات أو أكثر ، وحكم على بعضهن بالعمل مدى الحياة . وكان من بينهن عدة فتيات مقلوعات المناخر . وكانت النظافة العجيبة تسود الفرقة الأولى حيث تجلس حوالي الثلاثين فتاة ، وهن على جانب كبير من الجمال . . . وكانت النساء المتزوجات يرتدين القبعات . . . أما شعور الفتيات فهي كالنساء البسيطات اللواتي هنا ذوات الضفائر وشدات الأشرطة والخيوط . . .

وبعد ذلك دخلنا ورشات أخرى لم تكن فيها تلك النظافة ، بل على العكس ، كانت تفوح منها روائح كريهة تكاد لا تطاق . . . وقادنا (المالك) إلى غرفة جلس فيها عشرون أو ثلاثون عاملاً حراً (يعملون بالأجرة) ينسجون لقاء الفلوس ، لكن أجورهم تكاد لا تزيد على ما يسد رمق السجين . . . » .

مصادر البحث

- يبياتوف - فيدوسوف : تاريخ الاتحاد السوفياتي دار التقدم موسكو ترجمة خيري الضامن - ونقولا الطويل .
- هارتمان. ل.م - وباداكلاف ج : الدولة لأمبراطورية في العصور الوسطى . ترجمة د. جوزف نسيم ، الإسكندرية عام ١٩٦٦ .
- د. حسن صبحي : معالم التاريخ الأميركي والأوروبي الحديث دار النهضة العربية بيروت ١٩٦٨ .
- د. حسن صبحي : أحداث مميزة لتاريخ أوروبا بيروت ١٩٦٧ .
- د. جلال يحيى : أوروبا في العصور الحديثة حتى الحرب العالمية الأولى الهيئة المصرية للكتاب الإسكندرية ١٩٨١ .
- عمر الإسكندري وسليم حسن : تاريخ مصر الحديث (من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر) راجعه الكابتن أ - ج - سفد ج مكتبة مدبولي القاهرة - ١٩٩٠ .
- عبد الوهاب الكيالي : موسوعة السياسة . المؤسسة العربية

للدراسات والنشر . الجزء الأول ـ الطبعة الثانية ١٩٨٥ .

- نخلة قلفاط : بطرس الأكبر بيروت ١٨٨٦ .
- مايتون أندرسون : تاريخ القرن الثامن عشر في أوروبا تعريب د. نور الدين حاطوم . دار الفكر دمشق ١٩٧٧ .
- محمد فؤاد شكري . د. محمد أنيس : أوروبا في العصر الحديث الطبعة الأولى ١٩٥٦ ـ ١٩٥٧ مكتبة الأنكلور المصرية القاهرة .
- محمد مصطفى صفوت : السلطان محمد الفاتح .

- Charqus, Richard, A Short History of Russia 1956.
- Kirchnr Walter: A History of Russia, U.S.A 1962.
- Reddaway W.F.A History of Europe 1610-1715.
- Summer, B.H. Servey of Russia History. London 1961.
- Encyclopedia unisersalis volume 13 et 19 Paris.

محتويات البحث

سلسلة أحداث ومشاهير عالمية

تتناول هذه السلسلة سير شخصيات عالمية، من علماء وقادة، اقترنت أسماؤها بأحداث هامة كان لها أكبر الأثر في مجرى تاريخ البشرية على مرّ العصور.

- حمورابي
- أخناتون
- الإسكندر المقدوني
- هنيبعل
- يوليوس قيصر
- هرقل
- بطرس الأكبر (قيصر روسيا)
- نابوليون بونابرت
- بسمارك
- غاريبلدي
- كريستوف كولومبوس
- ابراهام لنكولن
- جورج واشنطن
- هتلر
- تشرشل
- موسوليني
- رومل
- مونتغمري
- ألفرد نوبل
- إديسون
- غاندي
- جواهر لال نهرو
- شارل ديغول
- أتاتورك

دار الفكر اللبناني